إمرأة من بيروت

هند مطر

رواية

مكتبة ياسمين

الحياةُ أقصرُ من أنْ نحياها لنحقّق أمانينا وأحلامنا.

ماذا يحمل معه الإنسان بعد الممات؟ ما الأثر الذي يتركه؟

مع مرور التاريخ ومحطاته، وتجارب الحياة ومندرجاتها، يتوجّب على الناس أنْ يكونوا متحابين بقيم الدين ومكارم الأخلاق ومفاهيم الإنسانية ومحبة الإنسان للإنسان، لأن الحياة باتت مثقلة بالكراهية والبغضاء، وهي أتفهُ من أنْ نعيشها، محمّلة بالأثقال البائسة، التي تقتنصُ من جمال العمْر وحلاوة السنين.

هنيئًا لمن عاش نقيًا مفعمًا بالسعادة مقبلًا على هذه الحياة بصفاء، حاملًا النوايا البيضاء التي تشعُ بنورِ الحب والسلام والوئام أينما حل.

من مقدمة الأستاذ علي عيسى

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

جميعُ كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

إمرأة من بيروت

t.me/yasmeenbook
مكتبة ياسمين

إمرأة من بيروت

هند مطر

رواية

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

t.me/yasmeenbook

مكتبة ياسمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير 2022 م - 1443 هـ

ردمك 978-614-01-3405-8

جميع الحقوق محفوظة

توزيع

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

جميع الحقوق محفوظة

إصدار

الدار العربية للعلوم ناشرون م م ح

التوزيع في المملكة العربية السعودية

دار إقـــراء للـنـشـــر

مركز الأعمال، مدينة الشارقة للنشر
المنطقة الحرة، الشارقة
الإمارات العربية المتحدة
جوال: 585597200 971+ - داخلي: 0585597200
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

t.me/yasmeenbook
مكتبة ياسمين

إهداء

أهدي هذه الرواية إلى الروح التي رافقتني طوال كتابة هذه القصة،

إلى الروح التي عشقت بيروت.

إلى روح أخي الحبيب عدنان محمود مطر

t.me/yasmeenbook
مکتبۂ یاسمین

المقدمة

الحياةُ أقصرُ من أنْ نحياها لنحقِّق أمانينا وأحلامنا.

ماذا يحمل معه الإنسان بعد الممات؟ ما الأثر الذي يتركه؟

مع مرور التاريخ ومحطاته، وتجارب الحياة ومندرجاتها، يتوجّب على الناس أنْ يكونوا متحابين بقيم الدين ومكارم الأخلاق ومفاهيم الإنسانية ومحبة الإنسان للإنسان، لأن الحياة باتت مثقلة بالكراهية والبغضاء، وهي أتفهُ من أنْ نعيشها، محمَّلة بالأثقال البائسة، التي تقتنصُ من جمال العمر وحلاوة السنين.

هنيئًا لمن عاش نقيًّا مفعمًا بالسعادة مقبلًا على هذه الحياة بصفاء، حاملًا النوايا البيضاء التي تشعُّ بنورِ الحب والسلام والوئام أينما حل.

ويحَكَ... أيها الإنسان المستغلُ لغيركَ ومغتصب حقوق الآخرين.

أين الرحمة في قلوبكم أيُّها الحكام؟... كيف تعيشون حياتكم على حسابِ تعاسة الآخرين؟

أين ضمائر مَن أغرقوا الوطن في وحول المهانة والظلم والقتل والقمع والعتمة؟

أين مستقبلُ الأجيال القادمة في وطننا؟

لقد هدروا مقدّرات شعب وحرموه من حقوق حياتهِ... من التقدّمِ في مجالات العلم والاكتشاف، إلى مصير مجهول يؤول إلى نهايات لا تحمدُ عقباها، لنصلَ والوطنَ إلى ما وصلنا إليه، كلٌّ يدَّعي الحق! والكلّ أيضًا يتلطى خلف طائفته!

أين العدل؟... أين الولاء للوطن؟

تغيّرت الأحوال وتبدّلت الأمور، وأصبحت الحياة المُعاشة شريعة غاب، بعيدة عن الرقي والحضارة والتطور والعولمة، وبتنا مسيَّرين في أسلوب حياتنا لا مخيَّرين، حتى ضاعت الأوطان وخسرنا تاريخنا وسنخسر لغتنا، وأرضنا وعاداتنا وتقاليدنا، صبرنا طويلًا ولكن للصبر حدود، لأن دمعتنا اليوم تقرعُ باب الغيم، ويحكم الوطن ظلمُ الكيد والعوج.

بقلم الأستاذ علي عيسى

الفصل الأول

t.me/yasmeenbook
مکتبۂ یاسمین

نحن والقمر جيران، عارف مواعيدنا، وتارك بقرميدنا أجمل الألوان

تسلّلت كلمات أغنية السيدة فيروز إلى أُذني وأنا نائمة في غرفتي، فدغدغت مشاعري وحرّكتني كما لو أني دمية تحرِّكها الخيوط. تثاءبتُ في فراشي بغنجٍ ودلال... لا بدَّ أنها عمتي العاشقة لصوت جارة العمر، جذبتني رائحة القهوة فقادتني إلى الشرفة حيث أمي وعمتي (هلا).

- "صباحُ الخير، ما هذا الصباحُ الجميلُ والمميّز"... طبعتُ قبلةً على خد أمي وأخرى على خد عمتي.
- "صباح الورد يا حبيبة قلب عمتكِ، هل نمتِ جيدًا؟".
- "نعم، نمتُ ملءَ جفوني فوجودكِ في لبنان يجعلني سعيدة ويشعرني بالطمأنينة، فأنتِ شقيقة أبي وتوأمه... أبي الذي لم أعرفه إلَّا بالصورة".

قالت أمي: "رحمه الله يا ابنتي، إنها مشيئته... إن تمّ قبولك في الجامعة ستنتقلين للعيش مع عمتكِ وتهنئين بحنانها".

رفعتُ يديَّ إلى السماء:

- "هذا أقصى ما أتمناه".

قالت عمتي بفرحٍ: "سيأتي القبول لا تخافي فأنتِ مجتهدةٌ وذكية يا حبيبتي وسنسافر سويًّا بإذن الله".

عمتي (هلا) هي توأم أبي... هاجرت مع زوجها وولديها إلى فرنسا عقبَ اندلاع الحرب الأهلية في بيروت عام 1975 بعد استشهاد أبي مباشرةً، لم تطق البقاء بعد دفنه يومًا واحدًا... كفرت بالبلد وكرهت العيش فيه.

والدي كان يملكُ صيدليةً في وسط بيروت يطلق عليها اسم (صيدلية بيروت) هو خريج الجامعة اللبنانية - قسم الصيدلة بعد تخرّجه تزوّج بأمي التي أحبَّها فترة طويلة... أنجبا ولدين وأنا. ومع شرارة الحرب الأولى، سقط صاروخ على الصيدلية واستشهد كل مَن كان بداخلها، أبي واثنين من الموظفين. كنتُ حينها لم أبلغْ عامي الأول، فيتّمتني الحرب من بدايتها فلا أذكر أبي ولا حتى ملامحه وصوته لم أتعرَّف إليه شابًّا ولا كهلًا فقد سَرَقته تلك الحرب اللعينة؛ لم ألفظْ قط كلمة (بابا) فهو لم يدلّلني ولم يحملني على كتفيه، كلما أشتاق إليه كنتُ أقفُ أمام صورته المعلّقة على الحائط، أنظرُ إليه مطوّلًا يعتصُر الفؤاد ألمًا على فراقه، ثم أتراجع خطوتين إلى الوراء أتمدّد على الكنبةِ قبالة صورته أغمضُ عينيَّ لعلِّي أراه قادمًا إليَّ... لم يكن لديَّ أعمام ألجأُ إليهم، لهذا كان تعلُّقي بعمتي كبيرًا فهي تحمل ملامح أبي وأشمُّ فيها رائحته؛ فهما توأم متماثل والاختلاف الوحيد بينهما بصمات الأصابع، فكيف لا أتعلق بها وأحبّها فأنا أراه فيها.

أما أمي المحتسبة لقد ورثتُ عنها الكثير، قوة الشخصية والإرادة القوية والرضى بالقضاء والقدر والصبر على الشدائد وحب الآخرين والعطاء اللامحدود.

أمي مثالٌ للتضحية والوفاء... ربَّتنا وعلَّمتنا براتبِ والدي التقاعدي بالإضافة إلى راتبٍ شهري من عمتي وزوجها رجل الأعمال الذي يمتلك سلسلة مطاعم في فرنسا، مما ضمنَ لنا حياةً كريمة.

(جاد) الأخ البكر تزوّج فور تخرّجهِ من الجامعة ويعملُ حاليًا في إحدى بنوك العاصمة.

أخي الثاني (جهاد) بعد الانتهاء من الثانوية العامة قرّر الالتحاق بمعهد قوى الأمن الداخلي، هو الآن في السنة الأخيرة وخلال أشهرٍ قليلة سوف يتخرّج برتبة ملازم وينتظر تخرّجه بفارغ الصبر ليتزوج (منى) ابنة خالتي التي يحبّها منذ الصغر، أما أنا لقد أنهيتُ الثانوية العامة وقدمتُ أوراقي للالتحاق بكلية الصيدلة بجامعة (ديكارت) في فرنسا، لأكملَ مسيرةَ والدي وأعيدَ فتح صيدلية تحملُ نفس الاسم (صيدلية بيروت).

الزيارة الشهرية

- "جيهان يا ابنتي هل أنتِ جاهزة؟".
- "دقائق فقط يا أمي".

عمتي: "... لم تتغير أبدًا... منذ صغرها هكذا".

- "سمعتكِ يا عمتي سمعتكِ، لقد تغيّرتُ وتلك الفتاة التي كانت تقفُ بالساعات أمام المرآة نضُجت الآن، لكن ماذا أفعل... إنَّ كمية الثياب التي أحضرتِها لي جعلتني في حيرة مما أرتدي... انظري ما رأيكِ بهذا الثوب؟".
- "القالب غالب يا حبيبتي، كما يقول المثل.. إنَّ جمالكِ أعطى قيمةً للثوب".

ابتسمتُ واقتربتُ من توأم أبي، حضنتها بقوة قبَّلتُ وجنتيها وهمستُ في أذنها... "أحبّكِ".

قالت أمي: "الشيء الوحيد الذي يثلجُ قلبي أنها ستكون عندك خلال فترة دراستها، فأنتِ أمها الثانية ولن أخافُ عليها أبدًا... هيّا بنا الآن".

- "أمي أنا مَن سيقود السيارة اليوم... أرجوكِ... لقد بلغتُ الثامنة عشرة من شهرين... أرجوكِ".

- "حسنًا تفضّلي المفتاح".

كانت وجهتنا الأولى قبر والدي... دخلنا بصمتٍ وهدوء كي لا نزعج الراقدين تحت التراب... نثرنا الورود وأخذت أمي وعمتي تدعوان له بالرحمة، أما أنا فقد جلستُ بالقرب منه لعلّه يسمعُ نبضات قلبي التي تحنُّ إليه وتفتقده.

بعد ذلك توجَّهنا إلى وسط العاصمة... الوسط المدمَّر... وسط من غير ملامح... كانت الشمسُ على وشك المغيب تنشر شعاعها البرتقالي على تلك المباني المدمَّرة والمحلات المليئة بالركام، وتحت كل حجرٍ ذكرى وحكاية تبثّها أنفاس المساء ومشاركة الخيال بتلك الذكريات.

سواتر هنا وأحجار إسمنتية هناك تمنعك من الدخول؛ وقفنا نحن الثلاثة ننظرُ بحنين إلى ما بقيَ من صيدلية (أبي) تسلّقتُ الساتر الحجري الضخم ونظرتُ بعيدًا لعلّي ألمحُ خياله من بعيد... في كل مرةٍ أقفُ فيها هنا أتأمّلُ الدمار والخراب، يتبادر إلى ذهني سؤالٌ لم أجدْ له جواب.

سألتُ أمي وعمتي: "لماذا لم يتمْ إلى الآن إعادةُ إعمار هذه المنطقة؟... نحن الآن في العام 1994 أي مضى على هذا الدمار ثمانية عشر عامًا... أيعقلُ أن لا يفكّر أحدٌ من رؤساء الجمهورية ورؤساء الحكومة المتعاقبين بإعادة الإعمار... وعودة النازحين إلى بيوتهم وأملاكهم... أو أن القادةَ والمسؤولين فخورون بإنجازاتهم... سعداءٌ بما اقترفت أيديهم... أو أن هذا الدمار أصبح من تراثنا اللبناني... هل لدى إحداكما جوابٌ مقنع؟".

- "ما تقولينه صحيحٌ يا ابنتي... لقد أبادوا البشرَ فهل سيهتمون بالحجرِ".

قالت عمتي:

- "اسمعي يا صغيرتي، كيف سيتم إعادة الإعمار وهذه المنطقة تعتبر إلى الآن خطّ تماسٍ، ودخولها محظورٌ على الجميع".
- "وما ذنبنا نحنُ..؟ لنشاهد هذا الكمَّ الهائلَ من الدمار؟".
- "ابنتي... لا يمكنُ إعادةُ الحياةِ إلى هذه المنطقة قبل أن يتّفقوا فيما بينهم... وأن تكون هناك مصالحة بين جميع الأفرقاء... وأن يعاد بناء إرادة العيش المشترك كما كنا قبل عام 1975... لا تشغلي رأسك بهذه الأمور يا حبيبتي".

أخذت عمتي تشير بإصبعها إلى ذاك المكان وتلك السينما المشوّهة التي كانت ترتادها برفقة أبي... وذاك المحل وتلك الساحة وبقايا عمود الساعةِ التي كانت تلعبُ تحته... إنها ساحة البرج... "آه يا جيهان كم كانت الأيام جميلةً وكم كنتُ بحاجة لاسترجاع تلك الذكريات".

قالت أمي بغصةٍ: "لا زلتُ أعيشُ تلك الذكريات... لا تفارقني أبدًا بلحظاتها ودقائقها... منها أستمدُّ قوتي واستمراري في الحياة...".

محطتنا الثالثة منزل أخي جاد... بالأمس وبعد اصطحابه لعمتي من المطار اتفقَ معها أن يكون العشاء عنده...

كان العشاءُ عائليًّا بامتياز لم يخلُ من النكات والسخرية وخاصةً بوجود أخي (جهاد) الذي بدأ يمارس علينا سلطته وإصدار أوامره إليَّ وإلى (مريم) زوجة (جاد) ثم استدار نحو خطيبته (منى) قائلًا.. "وأنتِ اذهبي وأحضري لنا القهوة".

تذمّرت منى قائلة... "ماذا ستفعل بي عندما نتخرّج يا حبيبي؟".

قال ضاحكًا... "الكثير الكثير... يكفيكِ شرفًا بأنكِ ستكونين حرم الملازم (جهاد خطّاب)".

فجأة توقّف المزاح مع دخول مريم وبيدها قالب حلوى وابتسامة مشرقة تعتلي شفتيها... وضعته أمام أمي... نظرتُ إلى أخوَيّ باستغراب... إنه ليس ميلاد أمي ما بها (مريم).

وقف جاد وأحاط خصر زوجته بيده قائلًا: "سنخبركما شيئًا مهمًّا".. سادت لحظة صمت والأنظار متّجهةً إليهما، كادت الثواني تفقدني حماسي فوقفتُ قائلة: "ماذا هناك هيّا قولا...".

قال جاد: "أمي ستصبحين جدّة قريبًا..".

صرختُ من فرحتي: "حقًّا... يا لهذا الخبر الجميل... سأصبحُ عمّة أنا أيضًا... ما أجملها من كلمة".

حضنتهما بحبٍّ وباركتُ لهما "سأكون عمّة طيّبة وحنونة أعدكما".

صفّقَ الجميع وانهالت عليهما التبريكات... إلا أن دموع أمي كانت أصدقَ تعبيرٍ عن فرحتها.

يومٌ جديدٌ آخر وصباحٌ فيروزي وقهوة الصباح الممزوجة بفرحِ أمي.

- "أتصدّقين يا (هلا) بأني لم أنم بالأمس من شدّة فرحتي".

قالت عمتي: "هذا طبيعي يا (سهى) ليس سهلًا أن تكوني جدّة فهذا اللقب يمنحكِ قدرًا... ويجدِّد مشاعر الأمومة... والحفيد يكسرُ كل القواعد التي تربّى عليها والده حتى محبّته تفوق حبّك لوالده... إن أحفادي يا (سهى) أغلى على قلبي من والديهم وستذكرين كلامي عند مجيء حفيدك".

- "كم أتمنّى أن تمر هذه الأشهر بسرعة لأضمّه إلى صدري وكم كنتُ أتمنّى وجود (غسان) بيننا... كم كان سيفرح بقدومه... كم كان سيدلِّله ويلاعبه... كان يقسم لي ويعدني بأنه سيبقى إلى جانبي حتى يراني جدّة... ها هو حلمه سيتحقّق دون وجوده... أشهر قليلة وأصبح جدّة بمفردي".

صرختُ من أعماق قلبي: "تبًّا لتلك الحرب ومسبِّبيها... تبًّا لعقول القادة الفارغة، تبًّا لسياستهم الخبيثة التي أطاحت بكل ذلك الكَمّ من الشهداء وخلّفت الدمار.. ومن أجل مَنْ ولماذا؟..

يقولون إنها حرب أهلية... أي بين الأهل داخل الدار بين الجيران والأحبة.

كانت عمتي (هلا) تنظرُ إليَّ والحزن يملأُ عينيها وقلبها يعتصر ألمًا.

- "عمّتي... استشهد أبي وهو في الثانية والثلاثين من عمره!!!... لماذا؟ ما الذنب الذي اقترفه ليموت رخيصًا هكذا... سؤال لم أجد له إجابة حتى الآن...".

غادرنا أبي دفاعًا عن عائلته... لا

دفاعًا عن كرامته... لا

موتًا ربانيًا... لا

قُتلَ أبي من أجل سياسة البقاء للأقوى من أجل بَسطْ نفوذهم وجشعهم، قسَّموا بيروت إلى قسمين، وضعوا الحواجز والسواتر، جعلوا منها بيروت الشرقية وبيروت الغربية... يا لهذا الإنجاز العظيم!... كل الدول لديها عاصمة واحدة إلا نحن الشعب العظيم لدينا عاصمتين؛ سلخوا الشمال عن الجنوب وفصَّلوا حسب مقاساتهم وطوائفهم".

قالت أمي بحزنٍ شديد: "كل هذا في قلبكِ يا ابنتي... متى عرفتِ كل هذا؟".

- "منذ أن افتقدتُ أبي وأحسستُ بوجع غيابه... قرأتُ الصحف القديمة التي تحتفظين بها وبحثتُ في الكتب عن كل ما يتعلّق بتلك الحرب... سألتُ أيضًا أساتذتي في المدرسة.

قلبي مليء بالحسرة على والدي وعلى كل الأبرياء الذين سقطوا؛ لستُ الوحيدة التي أعاني من اليتم، ففي مدرستي عشرات الطلاب يعانون أيضًا منهم من فقد الأم أو الأخ أو الأب لماذا؟؟".

قالت عمتي: "من أجل هذا تركتُ الوطن... تركته لأنني لا أستطيع العيش داخل قفص، لقد قيّدوا حريتنا وشلّوا تحرّكاتنا.. ووضعونا في الإقامة الجبرية... كم توسّلتُ لأمكِ كي تأتي إلى فرنسا، طلبتُ منها مرارًا وتكرارًا ترك لبنان... لكنها كانت ترفض".

- "خيرًا فعلتِ يا عمتي... كيف سنهاجر ونترك أبي وحيدًا هنا... لمن سنترك هذه الأرض وهذا البلد. أنا ضد الهجرة الأبدية التي تُنسينا الوطن... لهذا سأعود إلى لبنان بمجرّد تخرّجي، لن أكمل حياتي بالمهجر، سأعود لأكمل سيرة أبي".

أمسكت أمي بيدي قائلة:

- "كفى حزنًا يا ابنتي... كفاكِ قهرًا، اذهبي لتحضير نفسكِ وتبديل ملابسك... خالتك سمر بانتظارنا".
- "آسفة يا أمي لقد أفسدتُ فرحتكِ... أنا حقًا آسفة".

خبرٌ سار

كان الأسبوع الأول لوجود عمّتي مليئًا بتلبية الدعوات والزيارات للأصدقاء والأقرباء.

وفي إحدى الصباحات الفيروزية المعتادة، وبينما كنتُ أضع جدول الأسبوع والأماكن التي سنزورها رنَّ جرس الهاتف فأسرعت أمي قائلة: "لا بدّ أنها أم حفيدي".

ما هي إلا دقائق حتى نادت عمتي... إنه زوجها (أبو داني)... أسرعت عمتي للإجابة وهي تقول: "غريب لم يعتد الاتصال باكرًا"... كنتُ أنظرُ إليها وإلى ملامح وجهها... ابتسمت واعتلت الفرحة وجهها الجميل.. أغلقت السماعة وأسرعت نحوي قائلة:

- "لقد تمَّ قبولكِ في الجامعة يا حبيبتي".
- "عرفتُ ذلك من خلال ابتسامتك... حضنتها وقبّلتها بقوّة... الحمد لله سأسافر معكِ إذن... أمي ما بكِ ألستِ سعيدة؟".
- "سعيدة طبعًا يا ابنتي... لكنني بدأتُ من الآن أشعرُ بالوحدة".
- "سأنهي دراستي وأعود فورًا وسآتي كل صيف... لا تقلقي".

انهمرت دموع أمي. "إنها ستُّ سنوات يا ابنتي"... وقبل أن تنهي كلامها دخل أخي جهاد قائلًا:

- "لا بدّ من أنه تمَّ قبولكِ في الجامعة أليس كذلك؟".

- "نعم... يا أخي، لقد تمَّ قبولي".

اقترب مني ورفعني عن الأرض بحركة دائرية قائلًا:

- "مبروك يا حبيبتي... ستكونين أجمل دكتورة وبهذه المناسبة سنقيم احتفالًا يوم السبت ما رأيكم؟".

- "نعم... سوف نحتفل...".

بحلول المساء بدأ الهدوء والسكينة يخيّم على البيت وعلى قلبِ أمي الذي هدأ واستكان بعد وعود عمتي لها بزيارتنا كل ثلاثة أشهر...

خلدتُ إلى فراشي وبدأت الهواجس تتقاذفني... والقلق والخوف يقضُّ مضجعي على ما قد تؤول إليه الأوضاع في لبنان خلال فترة سفري... فالحرب لم تنتهِ بعد... بالأمس كانت هناك حرب الشوارع... وقبلها معركة العلم... حربُ إلغاءٍ هنا... وحاجزٌ مخيف هناك يقتلُ ويذبحُ على الهوية حسب هواه... شبابٌ في مقتبل العمر يحملون السلاح بوجه شبابٍ من نفسٍ أعمارهم لديهم ذات الهوية يتنشّقون نفس الهواء وينامون تحت نفس السماء.. لكن هناك من يقوم بقصف عقولهم... كانت أمي تركضُ بنا من مكانٍ لآخر هربًا من دويِّ القذائف إلى أن يستقرّ بنا الحال في الغرفةِ الصغيرةِ الملاصقة للمطبخ فكانت الغرفة الوحيدة الآمنة لأنها خالية من النوافذ

الزجاجية.. نجلس وننام فيها نحن الأربعة لأيامٍ، وعندما يحتدم القتال وتصدحُ أصوات الصواريخ فوق العمارات وبين الأزقّة، كانت تهرولُ بنا إلى الملجأ المكتظ بالسكان الخائفين والمذعورين على أطفالهم وأولادهم... وأرزاقهم... لا زالت أصواتهم تلاحقني حتى الآن... مسنّون هنا يجتمعون حول مسجّل صغير يتابعون آخر التطورات وأوقات الهدنة التي يتكرّمون بها علينا لالتقاط أنفاسنا... شباب وصبايا هناك يلهونَ بورق اللعب.. وصغار ينامون على أرجل أمهاتهم وفي أفواههم مصاصاتٍ يلعقونها بقوة فهي ملاذهم ومصدر أمانٍ لهم...

تقلّبتُ في فراشي بأسى... إلى متى سيستمر مسلسل الرعب... متى سنشاهد الحلقة الأخيرة.

أغمضتُ عينيّ وأنا أحلمُ بغدٍ مشرقٍ... وراء كل ليلٍ هناك فجرٌ يبتسمْ.

حفلة الوداع

الأسبوع الثاني من زيارة عمتي أوشك على نهايته... لقد أنهيتُ بالأمس دعوة الأهل والأصدقاء المقرّبين وأكد لي الجميع تلبية الدعوة.

كان صباح يوم الحفل مختلفًا عن غيره... لا صوت فيروز ولا رائحة قهوة... فالجميع في المطبخ يتناولون قهوتهم على رائحة الطعام وموسيقى الأواني...

وعند الخامسة كان كل شيءٍ جاهزًا وأنواع عديدة من الحلوى اللذيذة الفاخرة.

ارتديتُ ثوبًا ورديًا طويلًا مفتوحًا عن الظهر يظهرُ رشاقتي، أكمامه من الدانتيل الفاخر.. وأسدلتُ شعري الطويل الناعم فبدوتُ كحورية البحر المشرقة... تمايلتُ أمام عمتي وأمي بغنجٍ ودلال ما بين نبضةٍ حالمةٍ وشهقةٍ باردةٍ...

عند الثامنة اكتمل الحضور... فكنتُ محطَّ أنظارهم وإطرائهم وكانت هدى صديقتي القريبة من روحي وقلبي آخر الواصلين... فأحدثت بدخولها ضجّةً محبَّبةً ومفتونةً بجمالِ ثوبي، احتضنتني

بشوقٍ فأنا لم أرَها منذ قدوم عمتي. أمسكت يدي وبدأت تراقصني على أنغام أغنية (سواح) للعندليب الأسمر... أحسستُ كأني فراشة ملوَّنة تراقصُ النور... ذاك النور الذي يسطعُ من وجهِ (هدى) ومن جمال روحها، الفرح بادٍ على الوجوه ويملأ الأجواء ألفةً ومودّة، والأعين تفيضُ حماسةً وفرحًا، قلوبهم سعيدة، همسات أرواحهم تصلُ إلى أُذنيَّ فيخفق قلبي لفرحهم... كم هو جميل هذا الإحساس، إنه حقًا شعور رائع عندما تستطيع أن ترسم الابتسامة على وجوه مَن تحبّهم... كان جو الحفلةِ رائعًا، وأضاف أخي جاد نكهةً خاصةً خلال الألعاب الترفيهية التي شارك بها الجميع...

أمنيات الجميع انهالت عليّ بالنجاح في دراستي والتوفيق في حياتي الجديدة.. قالت هدى ممازحة:

- "إياكِ والبحث عن صديقة... لأني سأكون كالطير يرفرفُ حول قلبكِ وأمنعه من التعلّق بأي فتاة..".

قال جاد ضاحكًا:

- "وإن اقترب منها شاب مثلًا ماذا ستفعلين".

- "إن كان من الطيبة بمكان والمحبة والأخلاق والصدق، سأكون بمنتهى السعادة طبعًا".

قالت جيهان على الفور:

- "إن عروبتي ووطنيتي لن تسمحان لي أن أُغرم بشاب إلَّا من وطني".

ردَّت عمتي:

- "من هذه الناحية يمكنكِ أن تطمئنّي فأبناء بلدكِ موجودين في فرنسا بكثرة".

امتدّت السهرة إلى ساعاتِ الفجر الأولى وسط ضحكاتنا التي عانقت السماء، كم كنتُ بحاجةٍ لهذه الساعات الجميلة للهروب إلى عالم افتراضي مليء بالأمان والسلام وإلى مستقبلٍ أتمنّاه..

نمتُ ملء جفوني وبجانبي صديقتي هدى ولم نستيقظ إلا عند الواحدة ظهرًا.

كان البيتُ هادئًا جدًا... لا رائحة قهوة ولا صوت فيروز والصالة التي شهدت بالأمس على فرحِنا وضحكاتنا وضجيجنا، نظيفةً ومرتبةً وكأنّ عصا سحرية أعادت كل شيء إلى مكانه.

دخلتُ الغرف بحثًا عن أهل المنزل فلم أجد لهم أي أثر... حتى أخي جهاد سريره مرتّب ونوافذ غرفته مشرَّعة.

جلستُ أنا وهدى نرتشف القهوة في الشرفةِ... وبدأت تخبرني عن حبيبها (يوسف) الغيور وعن افتعالها مشكلًا كي تستطيع البقاء عندي بعد الحفلة. امتدَّ بنا الحديث إلى حد نسينا معه الوقت ونسيتُ اختفاء أمي وعمتي...

وبين ضحكاتي ودموع هدى المتفرّقة وبين حيرتي لمواساتها أو نُصحها بتركه... دخلت أمي وعمتي تحملان حقائب سفر بلون وردي... اللون المفضّل عندي.

قفزتُ من مكاني: "هي لي أليس كذلك".

ردَّت عمتي: "نعم لكِ يا صغيرتي..".

- "ولكن اليوم هو الأحد وجميع المتاجر مغلقة".

قالت أمي: "ذهبنا إلى صيدا برفقة جهاد... فالأسواق هناك لا تغلق محلّاتها..".

قبّلتهما وشكرتهما على اهتمامهما:

- "حسنًا... اجلسا لأحضر لكما القهوة".

صباحِ يوم الاثنين استلمتُ الفيزا وتمَّ حجز تذاكر السفر...

كان الأسبوع حافلًا بالتسوّق... مرّة برفقة عمتي ومرّة مع هدى يرافقنا البادي غارد (يوسف)، كنتُ أضيق ذرعًا منه أحيانًا ومن تدخّلاته وإملاءاته التي لا تنتهي... وعندما نعارضه يتركنا ويذهب. كم كنتُ أشفقُ لحالها... كم كنتُ أودُّ أن أنصحه وأخبره بأن الحب ليس أن تملكها، ولا أن تفرض عليها قراراتك وآرائك... الحب هو أن تملكَ مشاعرها بطيبتك وبدفء مشاعرك؛ أن تحضنها بحنانك، أن تحترم قرارها وكيانها... لكنه للأسف لا يسمع إلا لعقله ولا يتقبّل نصيحة من أحد، لكن هدى بطيبتها الزائدة تنسى الإساءة وتسامح بسرعة ولكن إلى متى؟..

يوم السفر

منذ الليلة الماضية ودموع أمي لم تجف... صدى تنهيداتها ظلَّ يؤرِّقني طوال الليل، تقلَّبتُ في فراشي وعبثًا أحاول... فراقها صعبٌ عليَّ ومؤلم... ولكن!!!

بقيتُ هكذا إلى أن بدأت ستارة الليل تنجلي... ومع بزوغ خيوط الفجر، تسلَّلتُ إلى الشرفة للقاء الشمس لعلّها تمنحني بعض الدفء والطمأنينة..

وقفتُ أتأمّل مدينتي بشغف وحنين، أنظرُ يسارًا فتتراءى أعمدةُ المتحفِ الوطني والسواتر الإسمنتية العالية الفاصلة بين المنطقة الغربية والشرقية، تلك المنطقة المحظورة علينا والتي لا أعرفُ عنها شيئًا، لا أعرفُ كيف هم قاطنوها... مناطق ومدن في وطني غريبةٌ عني، وأناسٌ يخافوننا ونخافهم أو هكذا أوهمونا، أنظرُ يمينًا يظهرُ البحر وهو يحتضن الجبال بحبٍّ.. إنه تكوين إلهي لهذه المدينةِ الساحرة جسَّدها الله على شواطئ بيروت لعلَّ البشر يعتبرون.

أيقظتُ أخي جهاد ليرافقني إلى ضريح والدي لوداعه فقال لي:

- "لا زال الوقت باكرًا... يا عزيزتي إنها السادسة".

رفعتُ الغطاء عنه بقوةٍ:

- "إن لم ترافقني سأذهبُ بمفردي".

نهضَ من سريره قائلًا: "حسنًا سوفَ أجهزُ حالًا".

كانت زيارتي إلى قبر والدي مؤلمةً وحزينةً ودَّعته قائلة: "رغم رحيلكَ عن الدنيا إلا أنك لم ترحلْ مني... جئتُ لأخبركَ بأنني سأسافرُ للدراسة لكنني سأعود وبيدي شهادتي؛ سأتغيَّبُ عن زيارتك مدّة طويلة لكنك ستكون حاضرًا في دعائي... إلى اللقاءِ يا أبي".

في طريقِ العودةِ ابتاع (جهاد) الكنافة بالجبن.

قلتُ له: "يا لهذا الوداع اللذيذ".

دقّت الساعة الخامسة عصرًا، وازدادت معها دقّاتُ قلبي، دموع وابتسامات تملأُ البيت...

اقتربتُ من أمي، نظرتُ في عينيها:

- "كفاكِ بكاءً أرجوكِ، دموعكِ أوجعت قلبي، ألستِ مَن شجَّعني على الدراسة في فرنسا؟".

- "إنه بكاءُ شوقٍ يا ابنتي لا اعتراض على السفر".

حضنتها وقبَّلتُ يديها... وقلت لأخي وزوجته:

- "وصيتي لكما أمي... لا تتركاها بمفردها".

قالت مريم: "لا تخافي يا (جيهان) سأزورها يوميًّا، المهم أن تنتبهي لدراستكِ ولا تشغلي بالكِ".

ابتسمتُ لها ابتسامة امتنان... ومددتُ يدي لمصافحة زوجها (جاد)، فاغرورقت عيناه بالدموع، ضمَّني إلى صدره... فشممتُ

رائحة أبي، أخذ يمسحُ على شعري قائلًا: "بأمان الله يا حبيبتي".

أردفت عمتي: "هيا يا جيهان كفى غنجًا ودلالًا... إنَّ أخاكِ ينتظرنا في السيارة".

أمسكتُ حقيبتي وتحاشيتُ النظرَ إلى أمي مجددًا، اكتفيتُ فقط برفع يدي مودّعةً.

عند وصولنا إلى قاعة المطار لم أستطع تمالك نفسي. أجهشتُ بالبكاء عند وداعي لجهاد لارتباطي الروحي به...

ابتسم قائلًا: "لا بدّ أنها دموع الخوف من الطائرة أليس كذلك؟".

كلماتهُ الساخرة رسمت الابتسامة البريئة على وجهي.

- "نعم... ابتسمي فالبكاء لا يليق بهاتين العينين الجميلتين، انتبهي لنفسكِ يا حبيبتي".

اقتربَ من عمتي وقبلَ أن يوصيها بي، وضعت إصبعها على فمه... "لا تكمل جيهان ابنتي".

أنهت عمتي إجراءات السفر وكنتُ أسيرُ وراءها كطفلةٍ صغيرةٍ مفعمة بالحنين والطيبة، كل شيء كان جديدًا عليَّ، مع أنّ حبَّ الاستكشاف والمعرفة كان ميزةً خاصةً لديَّ...

تجوَّلنا في السوق الحرة، وقفتُ مطولًا أمام رفِّ العطور بحثًا عن عطر أمي الخاص.

الفصل الثاني

t.me/yasmeenbook
مکتبۂ یاسمین

باريس

هبطت الطائرة في مطار (أورلي) عند الواحدة فجرًا، كانت الرحلةُ ممتعةٌ جدًا، رغمَ أنها طويلةٌ بعض الشيء فقد استغرقت المسافة مدّة أربع ساعاتٍ وخمس وأربعين دقيقة... لم أشعرُ خلالها بالملل أو حتى التعب، مع أنني لم أذقْ طعم النوم الليلةِ الماضيةِ.

نصفُ الركابُ غطَّ في النوم بمن فيهم عمتي... أما أنا فقد كنتُ متيقّظةً لكل ما يدور حولي، ومن شدّةِ حماسي لم أشعرْ بهبوط الطائرة على المدرج، عكس عمتي التي بحركةٍ لاشعورية أمسكت بيدي وضغطت عليها بقوةٍ..

- "عمتي هل أنتِ بخير؟".
- "نعم... نعم بخيرٍ يا حبيبتي... رُغمَ كلِّ هذه السنواتِ لم أستطعْ حتى الآن التغلب على الخوفِ من الطائرة".

لم أشعرْ بالغربةِ أبدًا، ربما لأنني أتكلّمُ الفرنسية بطلاقة، كذلك وجودي مع عمتي كونها مواطنة فرنسية منحني دفأً من نوعٍ آخر... أما أكثرُ ما لفتَ نظري في المطارِ أنَّ الخدمة ذاتيةٌ، لا يوجد حمّالون، فكل مسافر مسؤولٌ عن حملِ شنطه. جررتُ العربةَ بفرحٍ وانطلقنا إلى الصالة الخارجية، حيث زوج عمتي وابنها (وسام). كان اللقاءُ حارًّا وخاصةً مع

(وسام) الذي لم أرَهُ سابقًا سوى عبر الصور لأنه لم يزُرْ لبنان منذ مغادرتهُ وهو في عمرِ الثلاث سنوات... أما زوج عمتي فشعرتُ بحبِّه وحنانه لمجرَّد احتضانه لي قائلًا: "أهلًا بكِ بيننا يا ابنتي".

(فريد) زوج عمتي أو كما تناديه أمي (أبو داني) رجلٌ في الستين من عمرهِ يكبرُ عمتي بنحو عشرِ سنواتٍ، أعرفه لكنني لا أذكرُ ملامحه جيدًا فزيارته الأخيرة إلى لبنان كانت منذ حوالى العشر سنوات... لم أنسَ قط هداياه الجميلةُ وخاصةً اللعبةُ الكبيرةُ ذات الشعرِ الأشقرِ التي أطلقتُ عليها اسم نانسي ولا زلتُ أحتفظُ بها إلى الآن.

خرجنا من المطارِ وأنا متأبّطةُ ذراع (وسام) فداعبتني نسماتٌ باردةٌ لامست وجهي فأحسستُ برقّتها ونعومتها، أعقبتها رذاذ مطرٍ خفيف فأسرعنا الخطى باتجاه السيارة، حيثُ كانت الساعةُ قد شارفت على الثالثة فجرًا، الشوارعُ شبه فارغةٍ وهدوء يلفُّ المكان..

قلت لـ (وسام) بصوتٍ منخفض: "كم أنا متشوِّقة لرؤيةِ باريس، مدينة الموضةِ والعطور الرومانسية".

ابتسمَ قائلًا: "باريس مدينةٌ كبيرةٌ ونحن نسكنُ شمالها في منطقة (إيل دو فرانس Ile de France).

- "هذا يعني أنني لن أرى Tour Eiffel (برج إيفل) لو من بعيد؟".
- "بلى... لديكِ متّسعٌ من الوقتِ لرؤيته والتعرّف إلى باريس كلها وإن كنتِ متشوِّقة لهذا الحد سأصطحبكِ يوم الأحد ما رأيكِ؟".

- "موافقة طبعًا".

ما إنْ دخلنا منطقة (إيل دو فرانس) حتى تراءت أبنيتُها الجميلة التي تكتنفها الأشجارُ... لكن النعاس أخذَ يتسلَّلُ إليَّ شيئًا فشيئًا ويشلُّ تركيزي، ولم أعد أتمنّى سوى النوم.

تحاملتُ على نفسي إلى حين وصولنا البيت... وقفتُ في مدخلٍ يشبهُ صالةً صغيرةً شبه دائرية وسطها درجٌ داخليٌّ يربطُ الصالةَ الصغيرة بالغرفِ العلويةِ.

- "هيا يا حبيبتي.. تعالي لأوصلكِ إلى غرفتكِ فالنعاس والتعب باتا ظاهرين بوضوحٍ على وجهكِ".
- "لكنني أريدُ الاتصال بأمي لأطمئنها".
- "لا عليكِ يا حبيبتي.. خذي حمامًا دافئًا واخلدي إلى النوم وأنا سأتصل بها".

استيقظتُ بعد ساعاتٍ طويلةٍ من النومِ... هدوءٌ يعمُّ المكان لا صوتَ فيروز ولا رائحةَ قهوةٍ، نهضتُ من سريري باتجاهِ النافذة نظرتُ إلى الخارج، كان النهار سقيمًا والجو هادئًا جدًا. ارتديتُ ملابسي ونزلتُ بهدوءٍ، كلُّ شيءٍ غريب بالنسبةِ إليَّ، فأنا لم أعتدْ كل هذا السكون، أحسستُ بالضيقِ والرغبةِ في البكاءِ، وفجأة فُتحَ الباب وظهر وجه عمتي الملائكي، أسرعتُ إليها ودفنتُ رأسي في صدرها.

- "ما بكِ يا صغيرتي؟".
- "لا شيء... لكنني افتقدتُكِ".

ابتسمت قائلةً: "إنني هنا وبجانبكِ دومًا... تعالي الآن سوف نتّصلُ بأمكِ، ثم نشرب القهوةِ معًا".

مشيتُ وراءَها بحماسٍ، ونسيتُ الضيق والبكاء، أمسكت عمتي بالدفتر الموجود تحت الهاتف.

قلتُ لها: "لا داعي يا عمتي إنني أحفظُ الرقم عن ظهرِ قلبٍ".

طلبتُ الرقم المحبَّب إلى قلبي، فجاءني صوتُ مَنْ تشتاقُ لها نفسي، فهدأت روحي عند سماعه واستكانَ فؤادي، طمأنتها واطمأننتُ عليها، وأخذتُ جرعةً مضاعفةً من الحنان وسيلٍ من الدّعواتِ والتمنّياتِ بالتوفيق.

جلستُ مع عمتي نرتشفُ القهوةِ في حديقةِ منزلها الجانبية الصغيرةُ، تحيطُ بنا زهورُ (اللافندر) Lavendre من كل جانبٍ.

- "لا بدّ من أنكِ جائعة؟".
- "نعم... إنني أتضوَّرُ جوعًا".
- "جهَّزتُ لكِ سناك صغير تناوليه بعد القهوة... وعند السادسةِ ينتظرنا فريد في المطعمِ لتناول وجبةَ العشاءِ".
- "أين وسام... ألن يأتي معنا؟".
- "طبعًا سيكون معنا فهو مَن يدير المطعم".
- "وماذا عن داني؟".
- "داني... يديرُ مطعمًا في مدينةِ (نيس) حيث يسكن هو وعائلته... آهٍ كمْ أشتاقُ إلى حفيديّ.. أنتظرُ نهايةَ الأسبوعِ بفارغِ الصبرِ لرؤيتهما".

- "حسنًا يا عمتي سأصعدُ لتوضيب ملابسي بسرعةٍ وسأكون جاهزةً بعدَ ساعةٍ".
- كان المطعمُ فخمًا جدًا، مدخله رائع تحيطُ به الأضواءُ من كلِ جانب، حدّثني عمي (فريد) عن روّاد المطعم الدائمين من ممثلين ولاعبي الكرة المشهورين الذين ساهموا في إنجاحِ المطعم وإدراجه على لائحةِ أفضلِ المطاعم اللبنانية في باريس. وبعدِ الانتهاء من تناول العشاء اصطحبني (وسام) بجولةٍ صغيرةٍ داخل المطعم... تعرَّفتُ خلالها على الموظفين والموظفات وعلى طريقة سير العمل وكيفيةِ تقديم الطعام.

في اليومِ الثاني كان عليَّ مراجعة الجامعةِ، لاستكمالِ باقي إجراءات التسجيل.

جهَّزتُ ملفًا خاصًا يضمُّ شهاداتي المصدَّقة والمترجمة إلى الفرنسية، بالإضافةِ إلى الصور الشخصية وكلُ ما يلزمني من أوراقٍ لتقديمها، دخلتُ مكتبَ الدخول الخاص بالطلابِ الأجانب، وبعد إتمام الملفِ الخاص بي وتعبئته، توجَّهت إلى قسم المحاسبةِ لدفعِ الرسوم والتأمين الصحي الإلزامي، ومن ثمّ تمَّ تحديد يوم غدٍ موعدًا لإجراءِ اختبارِ اللغةِ الفرنسيةِ لتحديد المستوى وذلك في معهدٍ خاصٍ قريبٍ من الجامعةِ.

تم اجتيازِ اختبارِ اللَّغةِ الفرنسيةِ بنجاحٍ وبمعدّلٍ عالٍ، مما سهَّل عليَّ الانتقال إلى السنة الأولى مباشرةً وإعفائي من السنةِ التحضيرية، وأوَّل يومٍ دراسي سيبدأُ في الخامس عشر من شهر أيلول (سبتمبر).

سياحة صغيرة

حاولتُ اغتنام الأيام القليلةِ المتبقّيةِ على بدءِ الدراسةِ فكان (وسام) دليلي السياحي لمدةِ أسبوعٍ كاملٍ ونزولًا عندَ رغبةِ عمتي أخذَ إجازةً من عملهِ ووضعها تحت تصرفي وأولُ مكانٍ كنتُ أطمحُ لزيارتهِ هو (برج إيفل) الذي يعدُّ من أشهرِ معالمِ باريس، وقفتُ أمامه أتأملُ ارتفاعه الهائل، قلتُ لـ (وسام): "إنه حقًّا أعجوبة معمارية".

- "تعالي لنصعدَ إلى قمّته حيثُ يمكنكِ رؤيةِ باريس بأكملها".

كان (وسام) رفيقًا جيدًا جدًا ومرشدًا سياحيًا من الدرجةِ الأولى لمْ يترك تفصيلًا صغيرًا إلّا وقام بشرحه برحابةِ صدرٍ وابتسامةٍ دائمةٍ.

مشوارنا الثاني كان زيارة كاتدرائية (نوتردام) التي تعتبرُ واحدةً من أهم وأقدم الكاتدرائياتِ في العالم.

أما متحفُ (اللوفر) فإنه حكايةٌ بحدِّ ذاته، يضمُّ حضاراتِ العصر القديم... ولوحاتٍ فنية تجسِّدُ التراث العالمي بالإضافةِ إلى لوحة (الموناليزا) الشهيرة التي تتوسَّط المتحف، وحولها يجتمعُ عددٌ كبيرٌ من الناس من مختلف الجنسيات، هناكُ أيضًا تماثيل غاية في الروعة منها تمثال إخناتون وتمثال الملك رمسيس، ومن أبرز القطع الأثرية قناع الملكة نفرتيتي.

انتهى اليوم الطويل ولم نتمكّن من زيارة باقي الأقسام، إلّا أنني اكتفيتُ ثقافةً وتاريخًا وفنًا وجمالًا.

وصلتُ البيتَ وأنا منهكةٌ جسديًا وممتلئة فكريًا، قبّلتُ عمتي... وصعدتُ إلى غرفتي أخذتُ حمامًا سريعًا وآويتُ إلى الفراش أستعيدُ بكلِّ شغفٍ كل ما رأيته لأخزّنه، في ذاكرتي.

عند نهايةِ الأسبوع جاء (داني) وعائلته، فاستقبلتهم عمتي بحفاوةٍ كبيرةٍ وبالأخص الصغيرين (وليد وجاد) فأصبحَ البيت مليئًا بالحياة، جلسنا في حديقةِ البيتِ... جلستُ مع (جوليانا) زوجة (داني) حيث تعارفنا عن كثبٍ فهي من أم فرنسية ووالدها من أصول لبنانية، وقد ورثت عن أمها بياض بشرتها ولون عينيها المائل إلى الاخضرار مع لفحةٍ شرقيةٍ من والدها أكسبتها جمالًا من نوعٍ خاص.

انتهت الإجازة الأسبوعية وعاد (داني) وعائلته إلى مدينة نيس، وانتهت الأيام المتبقية على بدء الدراسة، إلّا أن السياحةِ التي قمتُ بها برفقةِ (وسام) منحتني شعورًا بالراحةِ والهدوءِ النفسي واستعدادًا قويًا لأول يوم جامعي.

الجامعة

أصرَّت عمتي أن توصلني إلى الجامعة في اليومِ الأول... ريثما أعتاد على الذهاب بمفردي وركوب الباص، كانت جامعة (ديكارت) تبعد من مدينة (إيل دوفرانس) حوالى النصف ساعة، وما إن وصلت حتى بدأ القلق والتوتر يجتاحني وأصبحَ ظاهرًا بوضوح على وجهي.

- "ما بكِ يا صغيرتي... هل أنتِ خائفة".
- "لا... لستُ خائفة، بل متوترة بعض الشيء... أتصدّقين يا عمتي أنني في أول يوم جامعي وفي باريس أيضًا... بالأمس كنتُ بالمرحلة الابتدائية ولا زلتُ أذكرُ تلكَ الطفلة التي سرقت قلمي... بعدها المرحلة المتوسطة ولا زال مشهدُ عراكي مع تلميذة احتلّت مقعدي الخشبي أمامَ عينيّ، ثم الثانوية ورحلاتي الجبلية وحفلات عيد المعلِّم والاستقلال كأنها بالأمسِ... وأنا اليوم هنا... بعيدةً عنْ كلِ شيء، لقد مرَّت السنوات بسرعةٍ كبيرة".
- "إنَّ ما تشعرين به طبيعي يا ابنتي، والانتقال من مرحلةِ المدرسة إلى الجامعةِ له رهبةً حتى لو كنتِ في بلدكِ، كوني شجاعةً كما عرفتكِ، واثقةً من نفسكِ، ضعي هدفكِ بين

عينيكِ وانطلقي نحو تحقيقه".

- "حسنًا يا عمتي، سأدخلُ الآن لاستلام الجدول، والتعرّف إلى قاعات المحاضراتِ وأماكنها".

أخذتُ نفسًا عميقًا، رسمتُ ابتسامةً مصطنعةً وتوكّلتُ على الله وسرتُ بخطى واثقة إلى داخل الحرم الجامعي.

دخلتُ مكتب سكرتيرة الجامعة لاستلام بطاقتي الجامعية، حيث يجتمعُ عددٌ كبير من الطلاب والطالبات يختلفون في اللون والثقافة واللغة، يشبهون (القوة المتعددة الجنسيات) التي استقدمت إلى لبنان في العام 1982 عُقب الاحتلال الإسرائيلي لمراقبةِ انسحاب منظمةِ التحرير الفلسطينية.

دخلتُ قاعةِ المحاضرات قبل بدء المحاضرة الأولى بنصفِ ساعةٍ حيث كان يوجد عددٌ قليلٌ من الطلابِ... اخترتُ مقعدًا جانبيًا قريبًا من النافذةِ... ثم بدأ توافد الطلابُ إلى أن أصبحت القاعة شبه ممتلئة.. كنتُ أراقبُ كلَّ مَن يدخل، منهم فرحٌ ومبتسم، ومنهم المتوتّر والخائف... ثم لفتَ نظري فتاةٌ تقفُ عندَ البابِ، عيناها تجوبان القاعةِ، تخطو خطوةً إلى الداخل ثم تتراجعُ، توجّهتُ نحوها وسألتها إن كانت بحاجةٍ إلى مساعدة، سألتني إن كانت هذه محاضرة (الكيمياء)؟ قلتُ لها نعم إنها هي، ودعوتها للجلوس إلى جانبي حيثُ يوجد مقعدٌ شاغرٌ.

ما إن دقّت الساعة التاسعة حتى دخل الدكتور المحاضر. عرَّفَ عن نفسه بكلماتٍ قليلة وسط هدوء الطلاب الذي يفوق عددهم الخمسين

طالبًا، وبدأ بالتعريف عن مادته، كنتُ أستمعُ بإصغاء بينما الفتاةُ المرتبكةُ تدوِّن كل كلمةٍ يقولها... ما إن انتهت المحاضرة حتى غادر معظم الطلاب للاستراحة قبل البدء بالثانية، سألتُ الفتاة التي تجلسُ جانبي إن كانت تريدُ الخروج... فقالت لا... تفضِّلُ البقاء لمراجعة ما دوَّنته. تركتُها وخرجتُ أتمشَّى في الممر الطويل كباقي الطلاب، وبعد انتهاء اليوم الأول، شكرتني الفتاةُ المرتبكة على مساعدتها عرَّفْتُها عن نفسي وسألتها عن اسمها، فردَّت بابتسامةٍ باردة: "أنا (غالية) من تونس".

ترافقنا إلى الخارج حيث كانت عمتي بانتظاري... ودّعتها ملوّحةً بيدي... ما إن صعدتُ إلى السيارةِ قالت عمتي:

- "رائع يا صغيرتي، أعتقدُ أنكِ كوَّنتِ صداقات لك أليس كذلك".

ابتسمتُ وقلتُ: "هكذا اعتقدت بداية الأمر لكن هذه الفتاة غريبةٌ بعض الشيء... إنها قليلةُ الكلام بالكاد عرفتُ اسمها".

- "دعكِ منها الآن وأخبريني كيف كان يومكِ".
- "لا أنكرُ يا عمتي شعوري بالغربة... كلُّ شيء مختلف هنا... الناس وطريقة تعاطيهم مع بعضهم... الدراسة وكلّ شيء مختلف".
- "سوفَ تعتادين وتتأقلمين بسرعةٍ صدقيني... فالحياة هنا والدراسة أسهلُ مما تتوقّعين".

مرَّت الأيام متشابهة ما بين الجامعة والبيت، مع أنني اكتسبتُ بعض الصداقات بفضلِ مودتي وابتسامتي الدائمة لكنها بقيت ضمن

الجامعة... كذلك اشتركتُ ببعضِ النشاطات الطلابية الثقافية وابتعدتُ عن الرياضية.. فكانت سببًا أيضًا للتقرّب من بعض فكنّا نقضي وقتَ الفراغِ في المكتبةِ أو في حلقاتِ مناقشة يقيمها طلاب السنة الثالثة..

فكنتُ عكس (غالية) الفتاةُ الانطوائيةُ التي لا تهتم إلا بدراستها وتدوين المحاضرات.

انتهى الفصل الدراسي الأول وانتهت معه أعباءُ الامتحانات وحان وقتُ الراحةِ والاستجمام... غدًا ستصلُ أمي إلى باريس لقضاءِ إجازة رأس السنة كما وعدَتها عمتي.

استيقظتُ باكرًا مع أنني لم أنمْ إلا بضع ساعاتٍ، ومع هذا أشعر بنشاطٍ لا مثيل له، فاليوم موعدُ وصولِ ست الكل... انتظرها بشوقٍ وسعادةٍ لو وزّعتها على العالم لاكتفى، حماسي لرؤيتها منعني من النوم ومنحني طاقةً عاليةً من النشاطِ والحيوية.. دخلتُ المطبخ وبدأتُ بتجهيز الفطور وأنا أتمتمُ أغنيةَ (نسَّمْ علينا الهوا من مفرق الوادي) وإذ بصوتٍ من خلفي يردِّد (يا هوا دخل الهوا خذني على بلادي) فالتفتُّ، فإذا بزوج عمتي يقفُ مكتوف اليدين قائلًا: "ما هذا النشاط اليوم".

احمرّت وجنتاي خجلًا وقلتُ له ": لم أستطع النوم أكثر، فقلتُ لِمَ لا أجهِّزُ لكم الفطور وأترك عمتي تنامُ قليلًا"... رمقني بنظرةِ إعجابٍ وتقدير قائلًا:

- "حبّذا لو تبقى (سهى) هنا كي نراكِ سعيدة إلى هذا الحد".

- "ومَنْ قال إنني لستُ سعيدة بينكم... كل ما في الأمرُ أنني اشتقتُ إليها كثيرًا".

كانت ساعاتُ النهار طويلةً جدًا وكأن عقاربُ الساعةِ أُصيبت بالشلل... ما أصعبَ الانتظار وما أقسى لحظاته... ما إنْ وصلنا المطار حتى أُعلنَ عن وصولِ الطائرة القادمة من بيروت... خفقَ قلبي بشدةٍ وبدأتُ أترقّبُ خروجها، إلى أن لاح طيفها من بعيد، فبدأتُ أتمايلُ يمينًا ويسارًا ملوّحةً بيديّ... إلى أنْ التقت عيناي بوهجِ عينيها المتلألئةِ، أَسرعتُ نحوها، غمرتها وقبَّلتُ يديها الباردتين.

- "كم أنا سعيدةٌ بقدومكِ يا أمي".

- "آه يا ابنتي كم اشتقتُ إليكِ وكم أفتقدكِ".

ثم اقترب زوج عمتي ورحَّبَ ترحيبًا حارًّا بأمي، كان سعيدًا بقدومها... وطوال الطريق كان يتحدّثُ معها عن الذكريات والأيامِ الماضية وعن وقوف أمي بجانبه عندما تقدَّم لخطبة عمتي أكثر من مرةٍ... وفي كل مرةٍ يتمُّ رفضه.

ثم سألته: "ولماذا كانوا يرفضون؟".

أجابت عمتي: "لأنه يَكبرُني بعشرِ سنواتٍ".

وبين زحمةِ الذكرياتِ والضحكات لم نشعرْ إلا ونحن أمام المنزل.

تشاركتُ الغرفةَ مع أمي، وارتميتُ في حضنها طوال الليل أسألها عن بيروت وعن الذي يرقدُ في ترابها، وعن أشقائي وأحوالهما وعن

التحضيرات لاستقبال الحفيد... أسألها وهى تروي وتروي دون كللٍ أو ملل إلى أن بانت خيوط الفجر وانكشف وجهُ الصباحِ فسكتت عن الكلام المباح.

فتحتُ عينيَّ على طَرقٍ خفيفٍ على الباب، تسلَّلتُ ببطءٍ كي لا أوقظَ أمي... فتحتُ الباب بهدوءٍ... وإذ بعمتي (هلا) تسألُ عن أمي فقلتُ لها: "إنها لا تزالُ نائمةٌ أظنَّها متعبةٌ من السفرِ".

- "ليس من عاداتها النوم إلى العاشرةِ... أيقظيها لنشربَ القهوةَ سويًا".

أخذتُ فنجانِ القهوةِ، واخترتُ زاويةً بعيدةً عنهما، وبدأتُ بقراءة رسائل هدى التي تفوق العشرين رسالة... فاختلط مذاقُ القهوةِ بالأحاسيسِ الجميلةِ، تارةً ترفعني لأعانقَ السماء وتارةً تسقطني في بئرٍ مظلمٍ لا قرار له، لم ينتشلني منه سوى صوت أمي وهي تناديني!

- "نعم يا أمي".

- "ما بكِ... ماذا هناكَ... ماذا تحملُ تلكَ الرسائل... ناديتك مراتٍ عديدةٍ لتناول الفطور".

- "آسفة... لم أسمعكِ".

لم يمنعنا تلبُّد السماءِ بالغيومِ وبرودة الجو من زيارةِ شارع (الشانزليزيه) الشهير وهو الشارع الأكثرُ شهرةً في العالم، يزخرُ الشارع بالمناظرِ الجميلةِ والمقاهي الكلاسيكية المصمَّمةِ على الطرازِ الريفي الرائع... تجوَّلنا سيرًا على الأقدامِ حتى نتمكّن من التوقّف

والاستمتاع بالمتاجر والمحلاتِ التي تعرضُ آخرَ صيحاتِ الموضة... أتنقّلُ بفرحٍ من محلٍ إلى آخر لأختارَ هدايا تذكارية لأخويَّ وعائلتيهما ولصديقتي (هدى)... ثم وصلنا آخر الشارع حيث (قوس النصر) وبدأنا بالتقاط الصور، وفي طريقِ العودة أفاجأ بأحدهم يناديني، فالتفتُّ إلى مصدرِ الصوت فإذا به (...) الذي أسرع نحونا... ألقى التحيةَ وسطَ دهْشتي وارتباكي الواضح وحيرةَ أمي وخوفها الذي ظهرَ واضحًا في عينيها...

سألني إنْ كنا نحتاجُ شيئًا... شكرته بابتسامةٍ عريضةٍ وأكملنا الطريق، وما إن خطوتُ خطوةً حتى أمسكتني أمي من ذراعي لتسألني عن ذاك الذي اقتحمَ طريقنا.

- "سأخبركِ حين نصلُ إلى السيارةِ، هيا بنا ربما لا زال وراءنا".

أسرعتُ نحو السيارةِ وأنا مستاءة بعضَ الشيء من تصرفها في الطريق...

اقتربت مني قائلةً: "أظنُ إنني تسرعتُ... لكنْ ردةُ فعلكِ تجاهَ ذاك الشاب هي التي أخافتني".

- "أمي... إنه طالبٌ في الجامعةِ ليس إلَّا، ولسنا أصدقاء فهو في السنة الثالثةِ، كلُّ ما في الأمرِ أنه خلال الأنشطةِ الثقافيةِ التي تُقام بين طلاب سنة أولى وثالثة صادفَ مقعده قربَ مقعدي حتى أني لا أذكر اسمه، لهذا تفاجأتُ مثلكِ تمامًا...

ابتسمت عمتي قائلةً: "لا بدَّ أنَ سحركِ وجمالكِ وهاتين الغمازتين كان لهم سحرٌ خاص وتأثيرٌ كبيرٌ في عقلِ ذاك الشاب".

ضحكنا كثيرًا، لم تنتهِ تلميحاتهما ووشوشاتهما طوال الطريق إلى أن وصلنا إلى البيت.

- شارفت السنةُ على نهايتها، يفصلنا يوم واحد فقط على الاحتفالِ بنهايةِ العام، وتحت إصرار (داني) وافقوا على أن تكونَ الحفلة عنده في مدينة (نيس) لحضورِ البرنامج الخاص الذي أعدَّهُ في المطعمِ خصيصًا لرأسِ السنة.
- كانت المرةُ الأولى التي أزورُ هذه المدينةَ الجميلةَ التي تمتازُ بطقسِها الدافئ كونها تقعُ جنوبَ مدينةِ باريس، يطلقون عليها مدينة الأحلامِ كونها غنية بالطبيعةِ الخلّابةِ ومتاحِفها ومبانيها الجميلة، كانَ استقبالُ زوجة (داني) وولديها حارًّا جدًا ومليئًا بالحماسِ. عندَ الثامنةِ والنصفِ توجّهنا إلى المطعمِ. كانت الشوارعُ ترتدي حلّةَ عيدي الميلاد ورأس السنةِ، أضواءٌ هنا وزينةٌ هناك. دخلنا المطعم على وقع موسيقى التشيلو الرائعة، جلسنا إلى الطاولة المخصَّصة لنا والمزيّنة بالشموع والورود كباقي الطاولات. يمتازُ المطعمُ بأطباقهِ اللبنانيةِ الفاخرة وأصنافٍ عديدة من المقبّلات الشهيّة... وعند منتصفِ الليل أُطفِئت الأضواء وبدأَ العدُّ التنازلي وبدأت الأمنياتُ ببدايةِ العام الجديد.

انتهت زيارة أمي إلى فرنسا وعادت إلى أرضِ الوطن محمَّلةً بالرسائلِ والأشواقُ لأشقائي وأصدقائي وأحبّتي. وعدتُّ إلى جامعتي ودراستي... ولأيامي المتشابهةِ.

الفصل الثالث

t.me/yasmeenbook
مکتبۂ یاسمین

انطلاقةٌ جديدة

رنَّ جرسُ المنبه بشكل متواصل انتشلني من سريري بالقوةِ، فالعودةُ إلى الدراسة بعد عطلةٍ طويلةٍ تصبحُ شاقّة. نظرتُ من النافذةِ كان كلُّ شيءٍ ثلجيًا وصامتًا... الأشجارُ ترتجفُ من الصقيع والسحبُ السوداء تملأُ السماء هي تُنذرُ بأمطارٍ غزيرةٍ.

تملّكتني رغبة شديدة بالعودةِ إلى السرير الدافئ... وقفتُ للحظات ثم لملمتُ أوصالي المرتجفة وقلتُ هيا يا (جيهان) دعكِ من هذا الكسلُ ولا تنسي لما أنتِ هنا. ارتديتُ ملابسي ووضعتُ قبعتي وخرجتُ على عجلٍ دون أن أوقظَ عمتي، فاليوم ستكون الطرقات مزدحمةً... ما إنْ صعدتُ الباص حتى بدأت الأمطار تنهمرُ بغزارةٍ "يا إلهي لقد نسيتُ المظلّة، كيفَ سأصلُ إلى الجامعةِ".

أوقفَ السائق الباص في المحطةِ رقم 2 القريبةِ من الجامعة، فاضطررتُ للوقوف داخل الموقف الزجاجي لحين وقوفِ المطر، فالجامعة تبعدُ 7 دقائق سيرًا على الأقدام لكن الوصول إليها مستحيل في ظلِّ هذا المطر الغزير. انتظرتُ ما يقاربُ النصف ساعة دون جدوى... فجأةً أرى سيارة تعود ببطء إلى الوراء مستخدمةً أضواء الفلاشر لإفساح المجال. توقفت أمامي وإذ بالطالب الجريء الذي

t.me/yasmeenbook
مكتبة ياسمين

لا أعرفُ اسمه يدعوني للركوب معه. تجاهلته وأبعدتُ عينيَّ عنه، فما كان منه إلَّا أن ترجَّلَ من سيارته قائلًا: "ما بكِ...؟؟ هيّا تعالي لأوصلكِ إلى الجامعةِ".

نظرتُ إليه بدهشةٍ فهو يتكلمُ العربية ويتقن اللهجة اللبنانية أيضًا. ثم تابع "لن تهدأ العاصفة والأمطارُ لن تتوقف".

حاول إمساكَ يدي... فشَددتُها منه وأسرعتُ باتجاه السيارة "حسنًا، حسنًا" وتحت تأثير الصدمة لم أتكلم معه كلمة واحدة، فقد أشغلتُ نفسي بتنشيف وجهي وشعري المبلَّل.

ما إن وصلنا حتى فتحتُ الباب ونزلتُ مسرعةً قائلةً: "شكرًا لكَ".

أسرعتُ باتجاه قاعة المحاضراتِ، وقفتُ لثوانٍ أبحثُ عن مقعدٍ شاغر، ثم لاحت لي يد (غالية) تدعوني للجلوسِ قربها.

"شكرًا لكِ عزيزتي... لقد تأخّرتُ بسببِ المطر".

أومأت برأسها وخلال ثوانٍ دخلَ الدكتور وبدأت المحاضرة وكعادتها (غالية) لم تترك كلمةً إلّا ودوّنتها.

مع بداية الأسبوع الثاني كانَ هناك لقاءٌ ثقافيٌّ هو الثالثُ خلال هذا العام لمناقشةِ الصعوبات التي يمرُّ بها طلابُ السنةِ الأولى، بهدف المساعدة من طلابِ سنة ثالثة، كنت متيقِّظة جيدًا حين بدأ الطلاب بالتعريف عن أسمائهم كي تتسنّى لي معرفة اسم ذاكَ الطالب الجريء الذي يجلسُ أمامي، يدعى (سالم) إذن.

كنتُ أوَّلُ مَنْ بدأَ بطرحِ الأسئلةِ.. وكان هو مَن يجيب عن استفساراتي... لم تخلُ المناقشات من بعض الهفوات والتعليقات

الساخرة والمضحكة في آنٍ... وعند الانتهاء حملتُ كتبي وهممتُ بالخروج إلا أنهُ اقتربَ مني وعرضَ عليَّ أن يوصلني بطريقه إلى البيتِ... رفضتُ بلباقةٍ وانصرفت.

كان سالمٌ شابًا وسيمًا، لونُ عينيهِ كلون البحر تخافُ من النظر داخلهما خوفًا من الغرقِ، في شعره تموّجاتٍ عريضة كموجِ البحرِ، عريض الكتفين طويل القامة وأنيق الملبس، وعطره من أجملِ العطورِ الفرنسية التي من المستحيل أن لا تعبقَ الرائحة في رأسكِ.

مرَّت الأشهرُ بسرعةٍ كبيرةٍ، مضت بكلِ ما فيها من جدٍّ وتعبٍ... مضت عكسَ ما بدأت بأحاسيس متناقضة بخوفٍ ورهبةٍ وانتهت بآمالٍ وطموحاتٍ مع أصدقاءٍ من مختلفِ البلدان تعرَّفتُ من خلالهم على ثقافاتٍ عديدة، وبدأتُ أنظر إلى الحياة بشكلٍ مختلف.

وها هي السنة الأولى أوشكت على نهايتها، أيام وتبدأ الامتحانات النهائية، وبعد ظهور النتائج سأسافرُ إلى لبنان، فكلِّي شوقٌ للمولودةِ الجديدة التي منعت أمي من زيارتي مجدّدًا، واستحوذت على اهتمامها وحبّها وحنانها حتى اتصالها بي لم يعد كالسابق... لقد سلبت (سهى) الصغيرة عقلها، وحين أتصلُ للاطمئنان عليها تبدأُ الحديث وتنهيه بها... لم أكن أنزعج أو أتذمَّر أبدًا بل كنتُ أفتخرُ كوني أصبحتُ عمّةً لفتاة صغيرة بعيدة عني، لكني سأراها قريبًا. أما (سالم) فعلاقتي به لم تتخطَّ حدود الزمالة رغمَ كل محاولاته التقرُّب مني ودعواته المتكرِّرة للخروجِ معه للغداء أو العشاء أو التنزّه، فكنتُ أرفضُ وأتحجَّج بعمتي وبقلقها عليَّ... إلى

أنْ فاجأني مرةً حيثُ كنتُ في الكافتيريا أتناولُ القهوة بهديةٍ وضعها أمامي... قائلًا: "أرجوكِ أنْ لا ترفضيها".

قلتُ: "أنا لا أقبلُ الهدايا بدون مناسبةٍ".

ردَّ على الفور: "ومَنْ قالَ إنها من غير مناسبة...".

نظرتُ إليه مستفسرةً!

قال: "افتحيها وستعرفين".

فتحتُها بحذرٍ وإذا هي قلادةٌ صغيرةٌ محفورٌ عليها (Bébé Soha) برقت عيناي فرحًا، قلتُ له: "إنها رائعةٌ... وجميلةٌ جدًا... ولكن ما الذي؟...".

وقبل أن أكمل كلامي قال: "إنَّ فرحتكِ ودموعكِ وبريق عينيكِ عندما أخبرتني بولادةِ تلكَ الطفلةِ وأنّكِ أصبحتِ عمّةً هو ما دفعني لاختيار هذه الهدية".

- "كم أنتَ حساسٌ وذكي، شكرًا لكَ".

رعشةُ حبٍّ

وصلتُ إلى البيتِ سعيدةً... حيث كانت عمتي تنتظرني على الغداء.

- "سأبدِّلُ ملابسي وأنزلُ فورًا".

أخرجتُ القلادةُ نظرتُ إليها مطوّلًا وضعتها حولَ عنقي وقفتُ أمام المرآة أتلمّسها بحبٍّ وحنانٍ... ثم أسرحُ قليلًا وقد انتصبت بوجهي صورة ذاك الشاب... فجأةً يطرقُ سمعي صوتُ عمتي:

- "جيهان... أين أصبحتِ؟".

نزلتُ مسرعةً: "آسفة... يا عمتي على تأخري، انشغلتُ قليلًا بهذه القلادة... انظري ما رأيكِ؟".

- "آه إنها رائعة، لماذا لم تخبريني لأرافقكِ إلى السوق؟".

- "إنها هدية من (سالم)".

توقفت عن سكبِ الطعام: "مَنْ (سالم)؟".

- إنه لطيفٌ حقًّا وصاحبُ ذوقٍ رفيع وفوق كل ذلك جميلٌ جدًّا".

نظرت إليَّ عمتي نظرة تأمل وسألتني: "إنه يعجبكِ إذن؟".

ابتسمتُ وبخجل: "حتى وإن كان يعجبني ما الفائدة... فأنا لستُ جاهزة للحب الآن ولا أريدُ أن أشغلَ رأسي بهذه الأمور،

t.me/yasmeenbook
مكتبة ياسمين

فالأولوية لدارستي وآمالي وتحقيق ما أصبو إليه، لقد عاهدتُ أبي عند قبره أن أكملَ مشواره... وإن حاولتُ أن أفتح له بابًا للتقرُّبِ مني فربما لن أستطيع إغلاقه... إنني يا عمتي أتحاشى النظرَ في عينيه خوفًا من الغرق فيهما... ثم إنه فرنسي من أصولٍ جزائرية وعندما سألته عن إتقانه اللهجة اللبنانية فقال إنها تعودُ إلى والدتهِ".

- "لا بأس في ذلك يا صغيرتي... ما زال أمامكِ متّسعٌ من الوقتِ".

"انتهت فترة الامتحانات، كانت صعبةً على البعض وسهلةً على البعض الآخر، وخاصةً (غالية) لأنها استثمرت جهودها على مدار العام ولم تشارك في أي نشاط جامعي حتى أنها لم تجلس ساعةً واحدةً في الكافيتريا، لهذا لم ألحظ عليها توترًا حتى في أصعبِ المواد، واليوم بدأَ حبسُ الأنفاسِ مع بدءِ ظهورِ النتائج لطلاب السنةِ الأولى...

حاولتُ إخفاءَ توتّري إلّا أن قلبي كادَ أنْ يخرج من مكانهِ مع تعليقِ أول ورقةٍ على اللوحِ الخارجي حيثُ تزاحم الطلابُ لرؤيةِ نتائجهم... تنفّستُ الصعداء وتقدّمتُ بخطواتٍ واثقةٍ، وقبلَ أنْ أقتربَ رأيتُ (غالية) تخرجُ من وسطِ الزحام دون أي علاماتٍ على وجهها فانقبضَ قلبي... "يا إلهي ما بها"... أسرعتُ وسط الطلاب لرؤية نتيجتي؛ وقفتُ لثوانٍ أبحثُ عن اسمي فخفقَ قلبي خفقةً لا نظيرَ لها وأنا أرى درجتي وبجانبها جيد جدًا... استدرتُ بحثًا عن (غالية) فإذا بـ (سالم) يقفُ بعيدًا وبيده باقةَ زهورٍ؛ أسرعتُ نحوه ومن غير وعي احتضنته قائلة: "لقد نجحتُ وبتقدير عالٍ".

- "مبروك عزيزتي جيهان...".

انسحبتُ من بين يديه: "آسفة... اعذرني".

- "لا بأس... تفضلي إنها لكِ بمناسبةِ نجاحكِ".

- "خصيصًا لي..".

- "نعم لكِ... كنتُ واثقًا من نجاحكِ... ما رأيكِ أن تقبلي دعوتي للعشاء بهذه المناسبة؟".

- "آسفة.. لن أستطيع، سأسافرُ غدًا وعليَّ توضيب حقائبي..". ودّعته وذهبتُ لأرى (غالية)... جلستُ قربها وهذه المرة أنا المرتبكة:

- "ماذا عن نتيجتك؟".

قالت بثقةٍ: "لقد نجحتُ وبتقدير امتياز".

قفزتُ من مكاني بفرحٍ وقلت لها: "حقًّا... يا لكِ من فتاةٍ ساذجة، توتّرتُ كثيرًا عندما رأيتكِ تخرجين من وسط الطلاب دون ملامح".

قالت: "كنتُ واثقةً من نجاحي لهذا لم أتفاجأ".

- "إذن هيّا بنا علينا أن نحتفل بنجاحنا... ولن أقبل الاعتذار... فأنا أريد أن أعرف أيَّ نوعٍ من الفتيات أنتِ".

أمسكتها من يدها، إلى مقهى قريبٍ في آخر الشارع.

ما إنْ دخلنا المقهى وإذ أفاجأ بـ (سالم) يجلسُ إلى إحدى الطاولات هو وأصدقاؤه. نظرَ إليَّ نظرةَ لومٍ أحرجتني بعض الشيء إلّا إنني تظاهرتُ باللامبالاة... اخترنا طاولةً في آخر المطعم... وسط عينيه اللتين تلاحقاني.

قلتُ لها: "لديّ نصف ساعة فقط. عمتي تنتظرني على أحرٍّ من الجمر. هيّا أخبريني عنكِ وعن كمية الحزن التي في عينيك.. وعن كل هذا الانطواء".

قالت غالية: "مملَّة أنا صح؟... لكني لم أُخلقْ هكذا صدّقيني... كنتُ فتاةً مدلَّلة أضحكُ وأمرحُ كباقي الفتيات... أنتظرُ أخي الذي سيولد بفارغ الصبر إلَّا أنَّ القدرَ سرقَ مني كل شيءٍ جميلٍ، ففي ليلةٍ باردة ممطرة توفيَّ والدايَّ وهما في طريقهما إلى المشفى. كان أبي مسرعًا ومتوترًا، انزلقت بهما السيارة وفارقا الحياة على الفور... خسرتهما وخسرتُ أخي، كنتُ حينها في الثانية عشرة ومنذُ ذلك اليوم أصبحتُ شبه فتاة... تلاشت أحلامي واسودّت الدنيا أمامي... أعيشُ جسدًا بلا روح، عشتُ مع جديَّ اللذين أغدقا عليَّ الحب والحنان لكنهما لم يستطيعا تضميد جراحي، وأنا فتاةٌ يافعة..."

تنهّدت تنهيدة عميقة ثم تابعت: "كنتُ بعمر الزهور وبأمسِّ الحاجة إليهما وإلى أمي بالذات، تجرّعتُ الحسرة منذ الصغر لهذا أفرغتُ كلَّ طاقتي بدراستي وحصلتُ على منحةٍ جامعية بعد تخرّجي من الثانويةِ العامةِ بمعدّلٍ عالٍ جدًّا وها أنا هنا اليوم... أنزلُ في سكن الجامعة لكن صدِّقيني لا شيء يعنيني الآن سوى انتهاء هذه السنوات بسرعةْ لأعود إلى بلدي وأردُّ الجميل لجدي وجدتي وأكون سندًا لهما... وعن عدم مشاركتي بالنشاطات فلا طاقةَ لي... غادرني الفرح منذُ زمنٍ فأنا لا أذكرُ متى ابتسمتُ آخر مرة".

- "آسفة حقًّا يا عزيزتي... لكنها إرادةُ الله... فالحياة لن تتوقف وعليكِ أن تنظري إليها من الجانب المشرق... وأن تقدِّري قيمة الحياة وتشكري ربكِ على النِّعم التي وهبك إياها... عليكِ أن تنظري إلى الحياة نظرةً مليئةً بالأملِ والتفاؤل..".

شدّت (غالية) على يدي وابتسمت ابتسامةً صغيرةً: "سأحاول. هيّا بنا الآن فعمتكِ بانتظارك".

- "ما رأيكِ أنْ تأتي معي إلى البيتِ أعرّفكِ إلى عمتي ونقضي بقية اليوم سويًّا؟".
- "حسنًا"...

مررنا من جانبِ طاولةِ (سالم) ودّعتُه بابتسامةٍ لطيفةٍ وغادرنا المطعم باتجاه موقف الباص... فما كان منه إلا أن لحق بنا بسيارته ليوصلنا قائلًا: "لن أقبلَ الاعتذار هذه المرة".

ترجَّلَ من سيارته مسرعًا وفتحَ لي الباب وهمسَ في أذني بهدوءٍ: "مع أنكِ رفضتِ دعوتي إلَّا أنني مسرورٌ جدًّا الآن".

عند وصولنا ودّعته على أمل اللقاء في العام الدراسي القادم.

فرحةٌ وغصَّة

كانت عمتي تنتظرني عند باب البيت، أسرعتُ نحوها:

- "لقد نجحتُ يا عمتي وبتقدير جيد جدًّا".

غمرتني بحبٍّ قائلة: "أنا فخورة جدًّا بكِ يا حبيبتي، كنتُ واثقة من نجاحك... ألف مبروك".

تركتها وأسرعتُ الخطى للداخل. "سأتصل بأمي لأزفَّ لها الخبر".

لحقت بي عمتي... "ليس الآن يا (جيهان)... انتظري". وبحركةٍ سريعة خطفت سماعة الهاتف من يدي وأغلقته.

نظرتُ إليها نظرة حائرة: "ماذا هناك...؟".

- "لا شيء يا عزيزتي... لكن صديقتك لا زالت واقفة في الخارج، ولا يُعقل أن تتركيها لوحدها... أظنها خجولة.. أدخليها وسوف أتصل بوالدتكِ في وقتٍ لاحق... فأمكِ متأكدة من نجاحك اطمئني..".

- "إنك على حق يا عمتي".

أسرعتُ إلى الخارج حيث (غالية):

- "آسفة.. آسفة حقًا اعذريني... ادخلي أرجوكِ".

جهَّزت لنا عمتي غداءً مميّزًا احتفالًا بنجاحي وعلى شرف (غالية) أيضًا التي بدت إنسانة مختلفة تمامًا عن تلك التي أعرفها... إنني أرى اليوم شخصية مختلفة، تمامًا فتاة واثقة من نفسها إلى حدِّ التمرد، متحدِّثة بشكل رائع وأسلوب مميز، ما أثار إعجاب عمتي بها من خلال كثرة الأحاديث المتبادلة بينهما.

- "أتصدّقين يا (غالية) إنها المرة الأولى التي أراكِ تبتسمين فيها... إن الابتسامة منحتكِ جمالًا من نوعٍ خاص وأصبحت ملامحكِ رقيقة جدًّا".
- "إن عمّتك إنسانة رائعة فعلًا.. لقد شعرتُ بالأمان والدفء والطمأنينة... أشعر أنني غير مقيّدة وأتكلّمُ بحرية".

أمسكت (غالية) يد عمتي: "شكرًا.. كثيرًا على كل هذا الدفء الموجود في بيتكِ وفي قلبكِ".

في وسط هذه الأجواء المفعمة بالسكينة دخل زوج عمتي وبيده قالب حلوى قائلًا:

- "أين الجميلة المتفوِّقة؟.. أين هي؟

أسرعتُ نحوه بلهفةِ الفتاة المشتاقة لحضن والدها، المتعطشة لكلماتِ دعمٍ وغنجٍ ودلال غمرني بحبٍ قائلًا:

- "مبروك النجاح يا حبيبتي". ثم أخرج من جيبه علبةً بيضاء وقدّمها لي: "هذه هديةُ نجاحكِ".
- "شكرًا لكَ يا عمي تكفيني هذه العاطفة وهذا الحب الذي أراه في عينيكَ".

فتحتُ العلبة الصغيرة فوجدتُ مفتاحًا داخلها نظرتُ إلى عمتي متسائلة فما كان منها إلا أن أمسكت يدي: "تعالي معي".

مشينا إلى باحة المنزل الخارجية وإذ بسيارةٍ حمراء صغيرة مزيّنةً بشريطةٍ بيضاء. قالت عمتي: "إن المفتاح الذي في يدكِ لهذه السيارة الجميلةِ إنها هديتنا لكِ".

وقفتُ مذهولة أمام جمال الهدية... اختنقت الكلمات وتبعثرت في داخلي...

سألني زوج عمتي: "ما بكِ يا (جيهان)، ألم تعجبكِ السيارة..؟".

- "بلى يا عمي، أكيد لكنني عاجزة عن الكلام، ولا أدري ماذا أقول".

ركضتُ نحوه ودفنتُ رأسي في صدره:

- "شكرًا لكما... شكرًا على كل ما تقدّمانه لي من رعاية وحبّ وحنان، لم أشعر بينكم بالغربة أبدًا أنتما وولديكما نِعمَ الأهل حقًّا".

غادرت (غالية) عند المساء بعد أن وصل (وسام) حاملًا معه رخصة القيادة الخاصة بي. طبعَ قبلتين على خدّي وهمس في أذني: "سأكون سعيدًا جدًا لو قبلتِ دعوتي للعشاء يوم غدٍ كي نحتفل سويًّا بنجاحكِ".

قلتُ له بفرحٍ وبصوتٍ عالٍ: "آسفة يا عزيزي إن غدًا يوم سفري لا أستطيع تلبية دعوتكَ".

فجأة سكتت الضحكات وساد الهدوء وانطفأ بريق عينيّ عمتي وزوجها.

نظرتُ إلى عمتي وقلتُ لها:

- "سأسافرُ غدًا أليس كذلك..؟".
- "لا، يا ابنتي لن تسافري".
- "لماذا..؟ ماذا هناك؟ هل حدث مكروه لأمي أو لأخويّ أرجوكِ يا عمتي أخبريني..؟".
- "لا.. لا يا ابنتي جميعهم بخير لا تقلقي... منذ قليل كلّمتُ أمكِ وأخبرتها بنجاحكِ".
- "إذن..!!!! لماذا لا يمكنني السفر..؟".
- "اجلسي وسأخبركِ... كل ما في الأمر أن الوضع في لبنان متأزم قليلًا ونخافُ عليكِ من السفر".

انتفضتُ من مكاني وقلتُ: "ماذا!!! مجددًا؟؟؟ ألم يكتفوا...؟ ماذا عن ذاك الاتفاق الذي عُقدَ في الطائف عام 1989 الذي تمَّ من خلاله الاتفاق بين الجميع على إنهاء الحرب الأهلية... وماذا عن وثيقة الوفاق الوطني تلك..؟؟؟".

قال زوج عمتي: "جيهان يا عزيزتي ذاك الاتفاق ما زال قائمًا والحرب الأهلية لن تعود مجدّدًا بإذن الله، ما مرَّ به الوطن وشعبه في السابق من حروب داخلية وتفجيرات واغتيالات لن يسمح بأن تتكرّر مجدّدًا... لكن يا ابنتي هناك عدوٌّ يتربّصُ بنا... الكيان الصهيوني لن يدعنا ننعمُ بالسلام. منذ فترة قصيرة وبالتحديد ثاني يوم امتحانكِ تمَّ

اختطاف قيادي لبناني تابع لإحدى المنظمات اللبنانية من قبل الكوماندوس الإسرائيلي، من منزله ليلًا والخوف الآن من ضربةٍ جديدة ومدمرَّة، خاصةً أنَّ آثار الاجتياح الإسرائيلي عام 1982 وما خلَّفه ما تزال واضحةً وحاضرة في الأماكن والنفوس، لذلك من الأفضل أن تتريّثي لنرى ما ستؤول إليه الأوضاع".

قالت عمتي: "إن الصيف لا زال في أوله يا حبيبتي ننتظر شهرًا كي نرى ماذا سيحدث".

استأذنتُ... وقلتُ: "سأجري اتصالًا مع أمي".

امتدت المكالمة حوالى الساعة وأنا أحاول جاهدة إقناع أمي بالسفر إلى بيروت... لكن دون فائدة.

خيبةُ أمل

أغمضتُ عينيَّ كي لا تفيضا دمعًا، تلاشت الأحلام وتبخّرت في الهواء. لن أرى وجوه أحبّتي ولن أقبّل تلك الصغيرة... لن أمشي على الرمال ولن أستنشق هواء بيروت... نمتُ وأنا أحتضن خيبةَ الأمل.

نهضتُ في الصباح منهكة الخطى، نظرتُ إلى حقيبة السفر، بعثرتُ ما بداخلها وخرجتُ، توجّهتُ إلى الحديقة حيث عمتي، وإذ بـ (وسام) يشاركها قهوتها...

- "صباح الخير...".

ردَّت عمتي: "صباح الورد يا حبيبتي... كيف حالكِ الآن؟".

"لستُ بخير يا عمتي... لم أنمْ جيدًا.. والصداع لم يفارقني منذ الأمس".

قدّم لي (وسام) فنجان القهوة وقال: "لا يليق بهذا الوجه الجميل هذا الوجوم، ابتسمي أرجوكِ كي يشرق نهاري".

نظرتُ إليه مستغربةً كلماته:

- "لماذا أنتَ هنا إلى الآن؟ ألن تذهبَ إلى عملك..".

- "لا... أنا في إجازة.. اسمعي يا (جيهان) بما أنّكِ لن تسافري فقد جهَّزتُ لكِ برنامجًا سياحيًا رائعًا، ولمدة أسبوع سأكون

تحت تصرّفكِ، سآخذك بجولةٍ إلى أجمل الأماكن السياحية في باريس، أوّلها ستكون رحلةً على متن باخرةٍ في نهر السين سنقضي يومًا كاملًا بعدها سأصطحبكِ إلى قصر فرساي، ثم متحف الشموع، ومتحف العطور، وحي الرسامين، وإلى قبر القائد نابليون بونابرت وآخرها إلى ديزني لاند. ما رأيكِ بهذا البرنامج..؟؟".

درتُ بعينيَّ بعشوائية ثم ألقيتُ نظرة على عمتي لأستشفَّ منها موقفها، فرأيتُ ابتسامة رضى تتجلَّى على محياها.

قال وسام بابتسامة: "ما رأيكِ...".

- "أقدِّرُ كل هذا، لكنكَ لستَ مضطرًا، أعلمُ جيدًا أنّكَ مللتَ تلك الأماكن وأنكَ زرتها مراتٍ عديدة، لهذا أرجوك لا تشغلْ بالك بي فأنا بخير صدِّقني، هذا فضلًا عن أنني أودُّ أن أكلِّمَ عمتي بموضوعٍ طرأ على بالي بالأمس..".
- "خيرًا... يا حبيبتي ماذا هناك..؟".
- "بما أنني لن أسافرَ هذه الفترة قرّرتُ أنْ أعملَ... وأرجوكِ يا عمتي لا تقولي شيئًا، أنا لستُ بحاجةٍ لشيء ولا ينقصني أيُّ شيء، كل ما في الأمر أنني أريدُ أن أكتسب خبرة، وأودُّ الانخراط أكثر في المجتمع الفرنسي".

نظرت إليَّ عمتي بدهشةٍ:

- "ما هذا الكلام يا ابنتي... لا طبعًا، لن أسمحَ لكِ بالعمل أنتِ أمانةٌ عندي، ماذا سأقولُ لوالدتكِ وأخويكِ، ولِمَ كلُّ

هذا التشاؤم؟ الصيف ببدايته، ربما خلال أيامٍ أو أسابيع تنتهي تلك التهديدات الإسرائيلية ويعود الوضع إلى سابق عهده".

- "سابق عهده يا عمتي... أيُّ عهدٍ تقصدين قبل عام 1975 أو بعده؟؟؟".

كان (وسام) ينظر إلى يديَّ ويراقب تحركاتي. اقتربتُ منه وقلتُ اسمع يا (وسام):

- "كنتُ أعتقد أنَّ بعد التوقيع على وثيقة الاتفاق الوطني بين جميع الأطراف وبعد تشكيل حكومة قوية في العام الماضي عنوانها وبرنامجها إعادة إعمار وسط بيروت... تفاءلتُ جدًّا وفرحتُ، لأن الحرب انتهت وولَّت إلى غير رجعة... أحسستُ أن حلمي باتَ قريبًا، خمسُ سنواتٍ أُنهي خلالها دراستي، بالتزامن مع إعادة إعمار وسط البلد، وأسترجع صيدلية أبي... إلا أنَّ عدوَّنا المتربِّص بنا لن يدعنا نعيشُ بسلامٍ... غارات وهمية، انتهاكات، احتلال، تهجير، عملاء، تجسُّس، إلى متى!!! ألا يحقُّ لنا أن نعيش بسلامٍ كباقي الدول أو أنَّ إسرائيل عدوّتنا وحدنا؟".

أمسك (وسام) يديّ قائلًا: "لا بأس، كل شيء سيكون على ما يرام... وفكرة العمل رائعة لهذا أعرضُ عليكِ العمل معي في المطعم".

- "لا... أفضِّل العمل في متاجر أدوية، أو في صيدلية، أريدُ أن أكتسب خبرة وأنا أتعرّف على الأدوية.. لا تخافي يا عمتي

إنْ وجدتُ ما أصبو إليه سأخبرهم أنني طالبة وأريد فقط اكتساب خبرة".

قال وسام: "سأساعدكِ في هذا الأمر".

أردفت عمتي: "وسام، أنا لستُ موافقة".

- "أمي أرجوكِ... إنها فتاة راشدة ويحقُّ لها أن تقرِّر ما تشاء، ربما لن تجد عملًا يناسبها".
- "عمتي لا تخافي عليَّ وأعدكِ إنْ لم أجد ما يناسبني سأعدلُ عن الفكرة".

ثلاثةُ أيامٍ متتالية ونحن نجولُ على الصيدليات الموجودة في مدينة (إيل دوفرانس) إلى أن حالفني الحظ أخيرًا في صيدلية (Espace) تبعد عن البيت حوالى خمسين دقيقة..

كان صاحبُ الصيدلية متفهِّمًا جدًا كوني طالبة وهدفي الخبرة فقط لذلك تركَ لي حرية اختيار ساعات العمل ووعدَ بمساعدتي بالتعرُّف على تركيبة الأدوية وقراءة الوصفات، على أن أبدأ العمل بداية الأسبوع المقبل.

كانت علاماتُ الاستياء ظاهرة بوضوحٍ على وجه (وسام) الذي بقي طوال الطريق يستمعُ إلى أغنية (une histoire d'amour) (قصة حب) (لميراي ماتيو)... يدندن معها حينًا ويصمت أحيانًا..

أخفضتُ صوتُ المسجل وقلتُ له: "ما بكَ..؟ ما الذي يزعجك..؟".

ابتسم ابتسامةً عريضةً وقال: "أعلمُ تمامًا أنَّ عملكِ بالصيدلية مرتبط بدراستك، لكنني كنتُ أتمنّى لو قبلتِ العمل معي في المطعم بقسمِ المحاسبة كي تكوني تحت حمايتي وتحت نظري".

- "لماذا إذن شجّعتني وساعدتني؟".

قال: "كنتِ في حالةٍ سيئة حينها، وتصميمك ذاك أخافني لهذا وافقتكِ وكنتُ على يقين بأنكِ لن تجدي عملًا لكنّكِ فتاةٌ محظوظة".

رفعتُ صوتَ المسجل دون أن أجيبه أو أناقشه... فهو لا يدري بأنه السبب، وأنّ قرار العمل كان وليد اللحظة فمنذ أن صافحني وقبّلني يوم نجاحي أحسستُ أنَ قبلته حارّة وأنفاسه دافئة، لكنني كذَّبتُ نفسي حينها مع أنَّ إحساس الأنثى لا يخطئ... أُقدِّرُ مشاعره تلك لكن مشاعري تجاهه لا تتعدّى مشاعر الأخوة.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

ضياع وحيرة

كان أولُ يومٍ في العمل متعبًا جدًا... لقد طُلبَ مني أن أرتِّبَ الأدوية الموجودة في المخزن ورصفها على الرفوف حسب الترتيب الأبجدي. مرَّ الأسبوع الأول وأنا على هذه الحال... لم أستلم وصفةَ دواءٍ واحدة لصرفها ولم يحاول السيد (جورج) أن يساعدني أو يشرح لي عن الأدوية كما وعدني. ساعاتُ طويلةٌ من العمل الشاق والمتعب أرهقتني وجعلتني طريحة الفراش طوال عطلة نهاية الأسبوع، ولولا قدوم (داني) وعائلته، لبقيتُ في غرفتي أنشدُ الراحة...

بعد الانتهاء من الغداء لم تسمح لي عمتي بمساعدتها في تنظيف الصحون قائلةً: "جهِّزي القهوة يا حبيبتي يكفي ما تعانيه في عملكِ".

أخذ (وسام) فنجان القهوة وجلس قربي قائلًا: "أتصدِّقين يا جيهان إنني أفتقدكِ في كل مساءٍ، لقد أدمنتُ وجودكِ معنا كل ليلةٍ".

هززتُ رأسي وابتسمتُ ثم حاولتُ بطريقة عفوية تغيير الحديث، فقلتُ (لجوليانا): "قَصَّةُ شعركِ جميلة جدًا وغريبة، لا بل جريئةً".

ابتسمت وقالت: "نعم... جريئة ولم تعجبْ (داني) بادئ الأمر..".

قطعَ (داني) حديثه الجانبي مع عمتي معلِّقًا: "عذرًا حبيبتي... في البداية صُعِقتُ، أما الآن فقد تعوّدت".

تصنّعت (جوليانا) الضحك وقالت بشفافية: "شكلي جميلٌ وأنا راضية تمامًا...". ثم تابعت موجِّهة كلامها إليَّ: "اسمعي يا (جيهان) سوف يُقام الأسبوع القادم عرض لأحدث صيحاتِ الموضةِ في (نيس) ما رأيكِ أن تأتي لحضوره؟ سيكون عرضًا مميزًا".

قال (وسام) بحماسٍ: "بكل تأكيد، إنها فكرةٌ رائعة". نظرَ إليَّ: "ما رأيكِ؟؟ نذهب سويًّا، نحضرُ العرض ونقضي إجازة نهاية الأسبوع هناك".

- "أودُ ذلك حقًّا... لكن إجازتي يوم واحد فقط... لهذا فأنا آسفة لا أستطيع الذهاب".

تغيّرت ملامح (وسام) فجأةً فقال: "حسنًا، كما تشائين"... ثم غادر المكان.

في المساء دخلت عمتي إلى غرفتي، جلست قربي على السرير:

- "ما بكِ يا صغيرتي... لِمَ كل هذا الحزن في عينيكِ؟".
- "لا أدري يا عمتي... صدِّقيني لا أدري، إنني أعيشُ حالة من الضغط النفسي وفي داخلي مخزون من الدموع أحبسه... لا أدري إن كان اشتياقًا لأمي ولأخويّ ولتلك الصغيرة...".

قالت عمتي وهي تمسك يديّ برفق: "أفهمُ تمامًا اشتياقكِ لأهلكِ... أما الضغط النفسي الذي تمرّين به فهو من عملكِ... اتركيه وخفِّفي عن نفسكِ التعب والإرهاق... أخرجي، تنزّهي، استمتعي بإجازتكِ الصيفية. لقد وضع (وسام) إجازته تحت تصرُّفكِ لكنكِ

t.me/yasmeenbook
مكتبة ياسمين

قـرّرتِ العمـل... واليـوم أيضًـا رفضـتِ مرافقتـه إلـى (نـيس) لمـاذا يا حبيبتي؟".

دفنتُ رأسي في صدرها وأجهشتُ بالبكاء.

- "لا بأس يـا صـغيرتي، أفرغـي مـا بـداخلكِ ربمـا ترتـاحين... إننـي مصـدومة بـكِ، أشـعر أنّـكِ كـبرتِ 10 سـنواتٍ... أيـن جيهـان الفتـاة المرحـة التـي تشـعُّ بالحيـاة؟ أيـن ابتسـامتكِ وإشراقة وجهك؟ كل هذا لأنكِ لم تسافري هذا الصيف".

لا تدري عمتي أنَّ ما أعانيه هـو بسبب ابنهـا، أريـدُ الهـروبُ منه والابتعاد عنه، رفقًا به لا أريدُ أن أجرح مشاعره التي ظهرت فجأة دون سابق إنذار.

- "كفى يا صـغيرتي... هيـا امسـحي دموعـكِ، ولا تـدعي شـيئًا يُعكِّر صفوَ حياتك، دعـكِ مـن ذاك العمـل، فأنـتِ في بـاريس مقصـد الملايـين مـن البشـرِ وإجازتـكِ طويلـة. اذهبـي برفقـة (وسـام) إلـى المتـاحف والحـدائق والمعـالم الأثريـة، تسوّقي... لا تدعي الصيف يمرُّ وأنتِ في تلك الصيدلية".

- "حسنًا.. يا عمتي سأفكرُ بالأمرِ".

العقل أولًا

كان صباح يوم الأحد مشرقًا، استيقظتُ بنشاطٍ وقرّرتُ طردَ الأفكار السلبية والسوداوية وأن أعود الفتاة المليئة بالحيوية بعدَ ليلةِ تفكير طويلة وسلسلة من القرارات التي سأبدأ بتنفيذها.

أولها، أن أتعامل مع (وسام) دون حساسية وبعفويتي المعتادة؛ ثانيًا، سأترك العمل في تلك الصيدلية وأستمتع بعطلتي الصيفية كما قالت عمتي.

فتحتُ خزانتي انتقيتُ ثوبًا أحمرًا يصلُ طوله إلى ركبتي، سرَّحتُ شعري بطريقةٍ كلاسيكية ناعمة... ونزلتُ لتناول الفطور...

كان الجميع جالسًا حولَ مائدةِ الطعام وضجيج أصواتهم يعمُّ المكان... ما إن دخلتُ حتى عمَّ السكون وارتسمت الابتسامات، حاولتُ تجاهلَ نظرات (وسام) بالذات.

- "صباح الخير للجميع".

طبعتُ قبلةً على خد عمتي لامست قلبها الذي كان يرقصُ فرحًا منذ أن رأتني. كانت كلمات الإطراء والثناء كفيلة أن تعيدَ إليَّ بهجةَ الحياة ورونقها.

قلتُ لجوليانا: "قرّرتُ أن أرافقكِ لحضور عرض الأزياء في الأسبوع المقبل".

- "حقًّا... حسنًا تفعلين".

قال وسام: "وماذا عن عملكِ؟؟".

- "سأتركه".

برقت عيناه فرحًا "ما هذه الأخبار السعيدة؟ إذن... نذهبُ إلى نيس يوم الخميس ما رأيكِ؟؟؟".

- "موافقة".

بعد الانتهاء من الفطور جلستُ جانبًا مع زوج عمتي وسألته إن كان هناك أخبار عن الوضع في لبنان ردَّ قائلًا:

- "ما زال الوضع متوترًا يا (جيهان) والتهديدات الإسرائيلية مستمرة".

عند المساء غادر (داني) وعائلته.. وخلدتُ إلى النوم وفي يدي جريدة (Le monde).

الفصل الرابع

t.me/yasmeenbook
مکتبۂ یاسمین

صيفٌ بلا ملامح

مرَّت أشهر الصيفِ بحلوها ومرِّها، بفرحٍ مصطنعٍ تارة ودموعٍ حارقةٍ طورًا، لم يدعْ (وسام) مكانًا رومانسيًا إلا واصطحبني إليه، كنتُ معه بالجسد فقط مشتتةً كأوراق الخريف، فالروح تائهة والعقل مضطربٌ والقلب كان في بيروت يخفقُ ويرتعش مع كل غارة وهميةٍ يقوم بها العدو الإسرائيلي على البقاع والجنوب تاركًا هلعًا مع صوت اختراق جدار الصوت الذي يرعد في بيروت. أما اليوم الوحيد الذي شعرتُ به بسعادةٍ لا تُوصف، وفرحًا أعادَ إليَّ ذاتي كان في مدينة الألعاب التي افتتحت العام الماضي في منطقة (Marne La Vallée) مدينة رائعة لا بل ساحرة... شخصياتٌ كرتونية محبَّبة وألعاب ترفيهية مثيرة ومرحة.

أما عمتي فكانت سعادتها لا توصف وبسمتها لا تبارح شفتيها، تلك السعادة التي لا أراها إلا بوجود حفيديها، لقد أصبحت امرأة تشعُّ بهجةً وإشراقًا، خاصةً عندما ترانا سويًّا تلمعُ عيناها فرحًا وتنهال علينا بعباراتٍ مليئة بالحب والفخر:

- "إنكما حقًّا ثنائي جميلٌ جدًا".

مع حبي الشديد لعمتي إلا أنني كنتُ أمتعضُ من داخلي عند سماع كلماتها، فهي على درايةٍ تامة بأن (سالم) يعجبني ومع أنني كنتُ أصدّهُ

t.me/yasmeenbook
مكتبة ياسمين

لأنني لا أفكرُ حاليًّا بخوضِ تجربة الحبِّ ولا حتى الزواج قبل إنهاء دراستي وتحقيق حلمي... إلَّا أن خوفها على ولدها من العبثِ مع الفتيات المتحرِّرات في فرنسا أو زواجه من إحداهن كان السبب لدفعه نحوي والتعلّق بي، غير آبهة بمشاعري. مع أنَّ (وسام) شابٌّ جذّابٌ جدًا طويل القامة وفوق كل هذا شابٌ ثريٌّ وابن عائلة فهو محطُّ أنظار للكثير من الفتياتِ إلَّا أنا... لأنه ابن عمتي فقط ولن أتخيّله في يومٍ من الأيام زوجًا... لكن كيف السبيل لإقناع عمتي دون جرح مشاعرها.

عاد شهر أيلول (سبتمبر) بسيمفونيته الخريفية حيث تتراقص على أنغامه أوراق الشجر بوجعٍ، وأخذت الطيور تتحضّر لتهاجر إلى أماكن دافئة، وتزحفُ غيماتٍ خجولةٍ لتحجبَ أشعة الشمس... غريبٌ هذا الفصلِ كم يشبه حياة البشر، لا نعلمَ إن كان نهاية لحياةٍ مليئة بالنشاط والفرح أو بداية عذبة لفصلٍ جديد.

كنتُ أراقب من خلف نافذتي هذه الاحتفالية بشجنٍ فيأخذني الحنين إلى خريف بيروت واستعدادات ربَّاتِ البيوت وانشغالهن بالتحضير والتنظيف، ومع أولى نسماتِ البردِ يسارعنَ إلى فرشِ السجاد وتجهيز التدفئة وإسدال الستائر، وعند سقوط أولى قطرات المطر تفوحُ من الأرض رائحة منعشة ندّية تبعثُ في النفسِ راحة غريبة وشعورًا لا يوصف. تمدّدتُ على سريري كريشةٍ يتقاذفها الشوق والحنين إلى بيروت وإلى أوراق خريفها المتناثرة في شوارعها وعلى أرصفتها فتشكّل لوحاتٍ مزركشة جميلة بألوانِ الخريف، ثم اخترق صوت عمتي أذنيَّ وانتشلني من خريف بيروت.

t.me/yasmeenbook
مكتبة ياسمين

- "آسفة يا عمتي... لم أسمعكِ".
- "ما بكِ يا صغيرتي... بما تفكرين".
- "أفكِّرُ بالجامعة واستعداداتها، أيامٌ قليلة وتبدأ الدراسة".
- "هيّا إذن لتناول الغداء... بعد ذلك نذهبُ إلى السوق لشراء بقية أغراضك".

نظرتُ إليها مطولًا وهي تجهِّزُ الطعام وقلتُ في نفسي يا إلهي... ما هذه العمة التي رزقني الله بها، أغرقتني بحبِّها وحنانها وعطفها وعطائها.. إنها السخيّة الكريمة التي لم تزعجني أو توبِّخني بكلمةٍ أو توجِّه لي انتقادًا واحدًا.. فخلال هذا العام الذي قضيته في منزلها لم أرَ منها سوى الحب وطيب المعاملة الحسنة... فمنذ أيامٍ سدّدت قسط الجامعة بالكامل... وأحضرت لي ملابس تكفيني عامًا كاملًا... حتى مصروفي الشهري أجده في ظرفٍ داخل غرفتي، كي لا تجرحني... يا لقلبها الأبيض والنقي الذي لا يعرف سوى الحب والعطاء، إنسانة كهذه كيف سأردُّ لها الجميل، لو جمعتُ كلَّ عباراتِ الشكر والامتنان ستظل قليلة عليها.

- "جيهان... يا ابنتي ما بكِ، بما أنتِ شاردة؟".
- "لا شيء يا عمتي أرجوكِ لا داعي للنزول إلى السوق لأنني سأبدأ من اليوم بمراجعة بعض المقررات ومن ثم سأخلدُ إلى النوم باكرًا".
- "ستنامين قبل قدوم (وسام)؟".

وقع سؤالها على رأسي كما لو أنه صاعقة... تلعثمت وأصبتُ بشردقة فأسرعت عمتي لإحضار كوب ماءٍ.

t.me/yasmeenbook
مكتبة ياسمين

- "لا بأس عليكِ، اشربي قليلًا يا حبيبتي".

عادت إلى مكانها غير أن ملامحها تغيّرت فجأةً وبدا وجهها متجهِّمًا.

- "آسفة يا عمتي، لا بدَّ من أنني لم أمضغُ الطعام جيدًا، سأسهرُ معكم طبعًا وهل تحلو السهرة من دوني".

ابتسمت بتوترٍ وهي تستدير نحو المطبخ قائلة: "الحياةُ بأكملها لا تحلو من دونك يا حبيبتي".

الجامعة والنظرة الإيجابية

كان أول يومٍ في الجامعة مختلفًا، بدأته بحماسٍ وشوقٍ عكس ما كنتُ عليه في العام السابق، اعتدتُّ جو الجامعة وأحببتُ الاختلاف بين الطلاب الوافدين من عدة دول، اكتسبتُ من خلالهم بعض العادات وتفاجأت بتقاليد بعضهم الآخر، فكل طالب وافد يأتي بثقافةِ بلده؛ منهم مَن يتأقلم ويعتاد على جوِّ البلد والجامعة بسهولة ومنهم مَن لا يستطع التأقلم فيرزح تحت ضغطٍ نفسيٍّ واجتماعيٍّ، فيضطر للجوء إلى مراكز دعم الطلاب الدوليين التي تضمُّ متخصصين وأطباء نفسيين لمساعدتهم. أما أنا فكنتُ الأوفر حظًّا لأن لديَّ عائلة تدعمني وتقف إلى جانبي لهذا لم أعانِ الوحدة والقلق كما بعض الطلاب.

وصلتُ باكرًا، جلستُ في كافيتريا الجامعة أحتسي فنجان قهوتي وأتأملُ وجوه الطلبة فأعرفُ الطالب الجديد من خلال توتّره ونظراته الحائرة... فأبتسمْ، ثم أقترب وأسألُ إنْ كان أو كانت بحاجةٍ إلى مساعدةٍ، منهم مَن يتجاوب بلهفةٍ واندفاعٍ، ومنهم مَن يهزُّ رأسه بالنفي، فأعود إلى طاولتي لأتفاجأ بـ (سالم) يقفُ أمامي مع ابتسامة صافية كصفاء عينيه، فانتابني شعور يشبه النسيم البارد بعد المطر، كانت عيناه تبرقانِ بفرحِ اللقاء. مدَّ يده لمصافحتي وقال:

- "هل يمكنني الجلوس..؟".
- "بالتأكيد... تفضّل".
- "الحمد الله على سلامتكِ، أخبريني عن إجازتكِ في بيروت وعن تلك الصغيرة..؟".

أمسكتُ فنجانَ قهوتي التي اختلطت فيه أحاسيسٌ ومشاعر متضاربة قلتُ له:

- "لمْ أسافر، لقد بقيتُ هنا".

تفاجأ ثم قال بعفوية وبصوتٍ مرتفع: "quoi؟؟؟!! ماذا؟؟".

إلا أن كلمة quoi اخترقت آذان كل من في الكافتيريا فسكتَ الجميع واتجهت أنظارهم إلى طاولتنا.

قلتُ له: "اهدأ.. ما بكَ؟؟".

- "أعذريني... أنا آسف حقًا، لقد كنتِ متحمسةً جدًا للسفر فما حدث؟".

أخبرته بمختصرٍ عما حدث، كان يستمع بإصغاءٍ شديد. تابعتُ قائلة:

- "لكنني سأسافر بعد انتهاء هذا الفصل، لن تمنعني التهديدات ولا حتى إسرائيل نفسها".

ثم نظرتُ إلى الساعة حيث كانت تشير إلى التاسعة.

- "اعذرني، عليَّ الذهاب".

أما غالية فلقائي بها كان مختلفًا، لقاء عفوي لم يخلُ من الأحضان والقبلات وما هي إلا ثوانٍ حتى دخل الدكتور المحاضر.

كان جدول المحاضرات لطلاب السنة الثانية مختلفًا عن السنة الأولى من حيث ساعاتِ الدراسة ومواد علمية تطبيقية أُضيفت إلى الجدول منها المختبر وقسم التشريح والأنسجة، فأصبحَ موعد عودتي إلى البيت بعد الرابعة عصرًا، لهذا لم أكنْ أرى (وسام) إلا نادرًا أو في عطلة نهاية الأسبوع، ما خففَّ قليلًا من الضغط النفسي الذي لازمني خلال فترة الصيف، وأصبحت أيامي تشبه بعضها، عدا تلك المشاعر التي بدأت تتدفّق إلى قلبي دون أن أشعر. ومع نهاية الفصل الدراسي الأول كانت شرارةُ الحب قد بدأت تحرقُ وتخترقُ أنسجة قلبي المغلقة بإحكام...

إلى بيروت

ودّعتُ عام 1995 بيروت بمناسبتين ووداعين، وداع عزوبية أخي (جهاد) ودخوله القفص الذهبي، ووداع عامٍ قضيته بعيدة عن بيروت، هذه المدينة التي بدأت تنفضُ الغبار عن أنقاضها بعد 20 عامًا من طمسها وترك وسطها مهجورًا وملجأً للكلاب الضالّة، فبدت كعروس تتهيّأ ليوم زفافها. كنتُ أراقبُ من بعيد ورشة إعادة إعمار وسطها وواجهتها البحرية بكلِ فرحٍ وفخرٍ وعز. وعند المساء أحتضنُ (سهى) الصغيرة وأهمسُ في أُذنها وأقول: "يا أيقونتي الصغيرة إنَّ سنة ميلادك مباركة، إنها سنةُ الإعمار والتأهيل لمدينتا وستكونين شاهدة على هذا الحدث الكبير، وستستعيدُ بيروت بهجتها ورونقها الذي لم أعرفه أنا. أتدرين يا أيقونتي أنَّ الرابط بيني وبينك هو بيروت، ففي السنة التي وُلدتِ فيها دُمِّرت وتقطعَّت أوصالها لكنها ستعود وسأحقِّق حلمَ جدّكِ بإذن الله".

وصايا أمي

بعد سفر عمتي وعائلتها قالت أمي: "بما أننا أصبحنا وحدنا الآن، أخبريني يا ابنتي عن ذاك الاهتمام والحب الظاهر في عينيَّ (وسام)".

تنفّستُ عميقًا وقلتُ:

- "نعم يا أمي... هذا الاهتمام هو سبب تعاستي، لأن (وسام) بالنسبةِ لي أخٌ فقط ولا أملك تجاهه سوى عاطفة الأخوة".

شهقت أمي: "ماذا... لكن يا جيهان".

قاطعتها قائلة: "أعرفُ ما ستقولينه، لا تخافي (وسام) شابٌّ مهذبٌ ويحترم القرابة التي بيننا، وأنا فتاةٌ راشدة فلا تسرحي بأوهامك... وعمتي تتمنّى أن أكون زوجة ابنها وأقرأ هذا الشيء بوضوح في عينيها من خلال تلميحاتها لكن ما العمل يا أمي... لا أستطيع؟".

- "اسمعي يا جيهان إياكِ والجحود.. إنَّ ما قدمته لكِ عمتكِ من دعمٍ ماديٍّ ومعنويٍّ سيبقى دينًا في رقبتك، إياكِ أن تقابلي إحسانها بالإساءة إلى مشاعر ولدها".

- "لكنني لا أفكِّرُ بالزواج الآن".

t.me/yasmeenbook
مكتبة ياسمين

- "لا توجد فتاة على وجه الأرض لا تفكّرُ بالزواج وتأسيس عائلة... إلّا إنْ كان هناك مَن يشغل قلبك... اسمعي يا ابنتي لا تسمحي لأحد أن يلوِّثَ داخلكِ الجميل ويرسمَ لكِ قلوبًا تتدلّى من السماء، فإنْ كنتِ لا تشعرين تجاهه بأيِّ مشاعر فالحب يأتي بعد الزواج من خلال معاملته وحبِّه. إياكِ يا ابنتي أن تنجرفي إلى مستنقعاتٍ ملوّنةٍ برّاقة لأنها ستنطفئ وتجفُّ مع الأيام... إياكِ وخذلان عمتكِ وابنها، فالخذلان يا ابنتي أقسى من وجع القلب"...

ثورةٌ جديدةٌ

مع بداية الفصل الدراسي الثاني من العام 1996، بدأت ثورةٌ جديدةٌ في عالم الاتصالات تجتاح بعضُ الدول بسرعةٍ جنونية، الهاتف الجوال (Cellulaire) وهو عبارة عن جهاز كمبيوتر محمول وظيفته الرئيسية توفير المكالمات الهاتفية وإرسال رسائل نصية، وأصبح حديثَ الطلابِ في الجامعة وعلى الرغم من إنه باهظ الثمن فقد تدافع الناس للحصول عليه، وكان زوج عمتي من أوائل الأشخاص الذين حصلوا على الجهاز الجديد الذي سهَّل عملية التواصل بينه وبين الموظفين في أيَّ وقت وفي أيَّ مكان، وفي غضون شهور قليلة أحدثَ نقلة نوعية كبيرة في حياة الناس إلى أن أصبحَ مع الوقت من الضروريات التي لا يمكن الاستغناء عنه، إنه اختراع ذو حديَّن.

مرّت أربعُ سنواتِ مليئة بالجهد والدراسة والنجاح من جهة، ومن حبٍ استوطن قلبي وذاتي من جهةٍ ثانية، ذاك الحب الذي حاربته بقوةٍ كي لا يجتاح قلبي لكنه هزمني... فاستسلمتُ مرغمةً وألقيتُ أسلحتي، لكن فرحتي بهذا الحبِ حُكِمَ عليها بالسجن المؤبّد ومشاعري دُفِنت داخلي لا يعرفها إلَّا مَن كان السبب بها... معه أكونُ

t.me/yasmeenbook
مكتبة ياسمين

كفراشةٍ حرَّةٍ طليقةٍ ملَّونةٍ بألوان الحب، وفي البيت أكون فراشةً عادية رمادية اللون أُخفي حبِّي واضغطُ على قلبي كي لا يسمع أحد خفقاته. نعم، أحببتُ (سالم) وأحبَّني، تعلّقتُ به كتعلّق جولييت بروميو وافتقدته كثيرًا عند تخرّجه، فكنتُ ألتقي به في المطعم القريب للجامعة مرتين أسبوعيًّا، والشيء الذي منحني الصبر على عدم ملاقاته يوميًّا هو الهاتف الجوال (Cellulaire) فكنتُ أقضي الليل أكلمه، وكأن هذه التكنولوجيا صُنِعت لأجلي. إلَّا أنَّ فرحتي بقيت مدفونة داخلي ولم أستطع مشاركتها مع أحد، ومشاعري لم أكن أستطيع البوح بها حتى لأقربِ الناس لي، أمي وعمتي، لأنني فتاةٌ أقدِّر المعروف الذي قُدِّمَ إليَّ ولا يمكنني نكران جميل عمتي وعائلتها... فهم ينتظرون يوم تخرّجي لأُزفَّ عروسًا إلى ابنهم المتيَّم الذي لم يترك فرصةً أو مناسبةً إلا وعبَّر لي فيها عن حبِّه وإعجابه الشديد، كيف سيمكنني كسرَ قلبه وخذلان عمتي التي قدَّمت لي كل شيء...

أعيشُ في صراعٍ صعب بين قلبي وعقلي أخوض معركة طاحنة وفي كل الأحوال سأخرجُ منها خاسرة، إما مبادئي وإما سعادتي.

فاجعة

في السنة الأخيرة وقبل تخرّجي بأشهرٍ قليلة فُجِعنا بوفاة زوج عمتي حيث داهمه المرض الخبيث ولم يمهله طويلًا. اهتزّت لوفاته أعمدة البيت وتشقّقت جدرانه فأصبح باردًا يلفحه الهواء من كل جانب. وانهارت معه الأسطورة المشعّة وانطفأ بريقها بعد رحيل رفيق دربها وحبّ حياتها، رثته بحبٍّ وودّعته بأسى وعيونٍ غير مصدَّقة بأنها لن تراه سوى بالأحلام. دُفنَ في بلد (جان جاك روسو Jan Jack Russo و(فولتير Voltaire) في أرضٍ أعطته جنسيتها دون تمييز، دون أن تسأل أيُّ دينٍ يعتنق أو أيُّ مذهبٍ يتبعُ، أما هو فقد أعطاها شبابه وإخلاصه ووفاءه.. دُفنَ بعيدًا عن مولده ومرتعه بعيدًا عن أرض أجداده.

لماذا!! لأنه أُجْبِرَ على الهجرة وترك أحلامه وذكرياته ورفاقه وأحبائه، في حقبة من الزمن ليست ببعيدة شهدت جولات من أبشع الحروب وأحداثِ وتحوّلات سياسية وديمغرافية أجبرت الآلاف من اللبنانيين على الهجرة مرغمين ومنهم عمتي وزوجها، والسبب الأول والأخير هو ضعف الدولة، فكان الفرار هو خيارهم الوحيد للبقاء على قيد الحياة تاركين أرواحهم في الوطن؛ يهاجرون بالجسد فقط، ثم يعودون إما في صناديق خشبية أو يُدفنون في بلد الغربة، والغربة غربتان، غربة الوطن وغربة فقد الأحبَّةِ.

t.me/yasmeenbook
مكتبة ياسمين

لأجل عينيها

بعد وفاة زوج عمتي زادت حيرتي وخوفي على مَن احتضنتني وعلّمتني وأغدقت عليَّ العطف والحنان.

زاد قلقي على مَن دلّلتني وجعلتني أميرةً في بيتها وقرّة عينٍ لها، فهي بأمسِّ الحاجة إليّ، أكثر من أي وقتٍ مضى. فبعد أن بلغتُ السادسة والعشرين وحصلتُ على شهادة البكالوريوس أصبحَ الخوفُ يقضُّ مضجعها من أن أتركها وأرحل. كنتُ أرى في عينيها التوسّل والرَّجاء بالبقاء قربها، كيف لا... وهي مَن أوصلتني إلى ما أنا عليه الآن، كيف لا... وهي مَن أمسكت بيدي لأعبرَ إلى برِّ الأمان، فلو كنتُ أملكُ أن أهديها قلبي لنزعته من صدري وقدَّمته لها، فما كان مني إلا إطلاق رصاصة الرحمة على قلبي لإسعادها والارتباط بابنها (وسام).

بدأت عمتي تتقبّلُ تدريجيًا وفاة زوجها بعد مرورِ أكثر من ستةِ أشهر، فأقنعها (وسام) بالسفر معي إلى لبنان لطلب يدي رسميًا من أمي وأخويّ ومن ثم ينضمّ إلينا في عطلة نهايةِ السنة لإتمام مراسم الخطوبة.

عروس البحر المتوسط

في خريفِ عام 2000 حطَّت الطائرة في مطار بيروت الدولي عند الساعة الواحدة فجرًا، تأبَّطتُ ذراع عمتي وخرجنا وما أن التقت عيناها بعينيَّ أمي حتى أجهشت بالبكاء على صدرها وقالت: "لقد رحل يا (سهى)، رحلَ الزوج والحبيب والسند آاااه وألف آه على فراقه".

في طريقنا إلى البيت، كانت بيروت مشعَّة، متلألئة ترتدي ثوب العافية، هادئة كهدوء الليل، مطمئنة، غافية كالياسمين، هدأت أوجاعها والتأمت جراحها... سأنتظر على الشرفة بزوغ الفجر لأرفرفَ بجناحيَّ قلبي وعقلي إلى وسطها وواجهتها.

سأصلِّي في مساجدها وكنائسها صلاة محبةٍ ومودّةٍ ورحمةٍ، سأطيرُ إلى جزء بيروت الثاني أرى وأتعرّفُ إلى تلك المناطق والمدن التي كانت مخبأة خلف المتاريس الإسمنتية والحواجز الترابية. كلِّي شوقٌ لأرى متحف بيروت الذي هو مأوى الكنوز الحضارية كي أبحث بين نعوش الفينيقيين واليونانيين والرومان عن حرزٍ أو قطعة فسيفساء لتبعد اللعنة التي حطّمت العقول وفرَّقت بين أبناء الوطن الواحد. سأقفُ عند معبد (أشمون) وتمثالَ (أفروديت) وتابوت

(أحيرام) لأسألهم إن كان هناك نذرٌ على بيروت لم يوفَّ بعد؟ سأهرول لأزور بشري وأتحسَّس معقد (جبران)، وأزور جارة القمر التي زرعت فينا حبَّ الوطن فهي رمز الصمود والوفاء لأرض وطنها الذي لم تغادره أيام الحرب الأهلية والاجتياح الإسرائيلي الغاشم، بل بقي صوتها يصدح بأغنية (بحبك يا لبنان يا وطني بحبك) بصوتٍ ملؤه الحنان والحب ويجيش بالعاطفة الوطنية.

العائلة

فتحتُ عينيَّ على طرقاتٍ متلاحقة على البابِ وإذ بصديقتي (هدى) وخلفها بناتها الثلاثة... ما إن رأيتهنّ حتى انفجرتُ ضاحكةً، فالصغيرات يرتدين نفس الثوب وذات اللون بمقاساتٍ مختلفة، ركضتُ نحوهنّ وغمرتهنّ بحبٍّ وشوق.

- "يا إلهي ما أجملهن... إنَّ رؤيتهن يا (هدى) تبعثُ في النفس الفرح والسرور".

همست هدى في أذني: "قبِّليهنّ بالتساوي أرجوكِ، قبلتين وغمرة لكل واحدة".

لمْ أتمالك نفسي من الضحكِ مجددًا: "ألهذه الدرجة؟؟؟".

ما إن تجاوزت الساعة الثانية عشرة ظهرًا حتى تحوَّل البيت إلى ما يشبه حضانة الأطفال، مع قدوم حفيدتنا الأولى (سهى) وإخوتها الصغار، كذلك أخي (جهاد) وأولاده الثلاثة، فكان يومًا عائليًّا ممزوجًا بنكهة براءة الصغار.

لقد كبرت عائلتي وازداد عدد أفرادها... أصبحوا وطني الصغير المليء بالدفء، كيف سأتركهم وأنتقل للعيش في فرنسا التي تفتقد جو الأسرة والعلاقات الاجتماعية والعائلية، فأيُّ معضلَّةٍ هذه التي وضعتُ نفسي بها...

تقلّبتُ في فراشي ولم أستطع النوم وسط هذه الهواجس... وفي صباح اليوم التالي، أنهيتُ قهوتي الصباحية مع أمي وعمتي وخرجتُ لملاقاة (هدى) في إحدى مقاهي الداون تاون (Down Town).

- "ماذا هناك يا (جيهان) لقد أقلقتني مكالمتكِ باكرًا".
- "لن أستطيع الزواج من (وسام)، لا يمكنني العيش بعيدةً عن أهلي وعائلتي، لا أدري ماذا أفعل، وماذا سأقول لعمتي؟".
- "ما هذا الذي تقولينه يا (جيهان) قضيتِ خمس سنواتٍ في فرنسا وكنتِ سعيدة لم تتذمّري، ماذا لو تزوّجتِ من (سالم) ذاك الفرنسي الجزائري الأصل ستقولين نفس الكلام أو ماذا؟".
- "وماذا عن حلمي يا (هدى) ووعدي لوالدي... لقد تخلّيتُ عن حبّي ودفنتُ مشاعري ألا يكفي...".
- "تكلمي مع (وسام) بكل صراحة، ربما من أجلك ينتقل للعيش هنا... اسمعي يا صديقتي، إنَّ وهج الحب ينطفئ بعد سنة من الزواج وربما أقلَّ صدقيني. تزوَّجي إنسانًا يحبُّكِ ويقدِّركِ، يفهم عاداتنا وتقاليدنا وإياكِ أن تتّخذي قرارًا تندمين عليه لاحقًا".

بعد وصول (وسام) إلى بيروت وقبل موعد خطوبتنا بأيامٍ، أخذتهُ في نزهةٍ طويلةٍ إلى وسطِ بيروت لرؤيةِ جمالها وأبنيتها الجديدةِ، ندخلُ شارعًا ونخرجُ من آخر... ثم أكملنا إلى شاطئها

t.me/yasmeenbook
مكتبة ياسمين

ومنارتها حيثُ كان الموج يرسمُ أجملَ لوحاتِ التمرّد. أكملنا السير صعودًا إلى شارع الحمرا الذي يضجُّ بالحياةِ وهو مزيَّن بأشجار الميلاد، كبيرة وصغيرة، على مدخل هذا المحل وذاك المقهى. لي مع كل بلورةٍ مشعَّة من هذه البلّورات المنثورة على هذه الأمتار الطويلة حكاية جميلة، ومن ثمّ مررنا بمدرستي نبع الذكريات، تلمّستُ بواباتها السوداء وأنا أحدّثه عن بائع الذرة هنا، وبائع الكعكِ هناك، وعن رحلاتنا المدرسية والمسرحيات الفكاهية، وأشيرُ بإصبعي إلى بقايا الشظايا التي تخترق الأبنية، ثم حديقة الصنائع وركوبِ الدرّاجاتِ، ودرجِ سينما الكونكورد، ودلعِ البنات، وعن مراجيح العيد والعيديّات... أخذتُ نفسًا عميقًا، نظرتُ في عينيهِ وقلتُ: "أتظنُ أنه من السهلِ عليَّ تركُ كل هذه الوقائع واليوميات؟".

صمتَ قليلًا ثم قال: "أفهمكِ جيدًا يا حبيبتي فهذا النهار الطويل في أحياءِ بيروت أحيا جذوري مجدّدًا، وأصبحَ قلبي وعقلي مفعمين بالحنين. هيّا زيديني وقولي ما تشائين وخذي من روحي ما تريدين، فأنا سأكون لكِ ومعكِ وسأبني هنا بيتنا الجميل".

يوم خطوبتي

تمّت خطوبتي مع بداية السنة الجديدة، بعد أن ارتفعت أسهمُ (وسام) في قلبي من خلال موقفه الرجولي معي واحترام رغبتي بالبقاء في بيروت والاستقرار فيها بعد زواجنا كي أتمكّن من تحقيق حلمٍ ووعدٍ قطعته عند قبر أبي. وأبدى حماسًا غير اعتيادي عن إمكانية فتح فرعٍ لمطمعه هنا وسيباشر في البحث عن شقةٍ خاصة بنا، وكان له طلبٌ وحيدٌ فقط أن نقضي أشهر الصيف في فرنسا. بارك الجميع هذه القرارات وخاصةً عمتي، حيثُ جاء هذا الاتفاق في مصلحتها فبعد وفاة زوجها أصبحَ شبه مستحيل أنْ تعيشَ في فرنسا بدونه.

بعد ارتباطي بـ (وسام) بشكلٍ رسميٍّ بدأتُ أراه بشكلٍ مختلفٍ، بدأتُ أُعجبُ بكلامهِ وطريقةِ تفكيره حتى ملابسه الأنيقةِ أخذت تلفتُ انتباهي، كذلك عطره وتسريحة شعره، ابتسامته الجذّابة... كل هذه الصفات والأشياءِ الجميلة الموجودة به لم أكن أراها سابقًا (ألهذه الدرجة كنتُ عمياء).

دخلتُ غرفته التي ينامُ فيها لترتيبها وتنظيفها فإذا هي مرتبة، ملابسه معلّقة، أحذيته في زاوية الغرفةِ مصفوفة، تأمّلتُ أشياءه وساعته وخاتم خطوبتنا... شعرتُ بسعادةٍ، ابتسمتُ وهممتُ بالخروج

لألتقي به عند الباب خارجًا من الحمام شعره ووجهه مبلّلين ببعضِ قطراتِ الماء، وجَسدهُ يشبه جسد أبطال الإغريق القدامى، عضلاتهُ مفتولة وأكتافهُ عريضةً، لأول مرة أرى تفاصيل وجهه عن قرب... ابتسمَ وقال: "ما بكِ وكأنكِ تريني لأولِ مرةً".

همستُ له بخجلٍ: "نعم أول مرةٍ أراكَ وسيمًا هكذا".

شهدت الألفية الثانية تحوّلاتٍ عديدة أعادت الأمل إلى الشعبِ الذي لا يموت. ففي منتصفِ العام 2000 وتحديدًا في 25 أيار (مايو) تمَّ تحرير المناطق والبلداتِ الجنوبية المحتلة المعروفة "بالحزام الأمني" من الاحتلال الإسرائيلي، فكان يومًا مجيدًا للبنانيين عامة والجنوبين خاصة، يومٌ دَحرَ فيه المقاومون الاحتلال وعملاءه، وأعادَ الجنوبيين إلى مسقط رأسهم وأراضيهم التي جُبلت بدماءِ الشهداء. وقد شهدَ هذا الحدث التاريخي تضامنًا وتكاتفًا بين أبناء الوطن الواحد من شماله إلى جنوبه وبقاعه فعمَّت الاحتفالات ورُفعت رايات النصر في كلِ المناطق وعلى كل الشرفات، وأضاف هذا الانتصار التاريخي إنجازًا بارزًا للبنان لدحره أقوى جيوش العالم، وأعلنت الحكومة اللبنانية يوم 25 أيار (مايو) يومُ عطلةٍ رسميةٍ وعيدًا وطنيًا للبنان.

ومن جهةٍ ثانية، شهدت بيروت خلال هذه الفترة ازدهارًا أعادَ إليها مجدها وتاريخها العريق، فأصبحت مقصدًا للسيّاح العرب والأجانب وبدأت تستعيد عافيتها تدريجيًا وتحتل مراكز متقدِّمة في ما يخصُّ الموضة والتجميل، كذلك صنِّفت كإحدى أكثر المدن العربية

t.me/yasmeenbook
مكتبة ياسمين

حضورًا في الخيال الروائي. عادت بيروت كما أحلم بها متألّقة، شوارعها تعجُّ بالمارّين، مكتظّة بالسيّاح، تسرُّ الناظرين... أما على الصعيد العائلي، فقد تمّت ترقية أخي (جهاد) إلى رتبةِ نقيب في قوى الأمن الداخلي،، وأُقيم له حفل كبير في منزل خالتي الجبلي ودعت زوجته (منى) كلَّ أصدقائهم وأحبائهم، كذلك جاء (داني) وزوجته من فرنسا، حيثُ كانت الزيارة الأولى لـ (جوليانا)، فأعُجِبت ببيروت وقالت: "تشعرك هذه المدينة بأنها جزءٌ من موطنك، من ذاتك، متناقضة، غامضة أحيانًا، تتنوع فيها الحياة بين حرية التعبير، والأدب والصحافة مختلفة بالفن والمسرح والموسيقى والشعر متميِّزة بالموضة... جميلةٌ هذه المدينة بكلِ حالاتها وفصولها". كذلك طلبت (جوليانا) زيارة مدينة الشمس (بعلبك) فسارت بين أعمدتها وأحجارها بفرحٍ وإعجاب: "يا لها من مدينة خيالية".

- "نعم، إنها مدينة الحضارات المتعاقبة، المشهورة بمعابدها، كمعبد جوبتير، وإله الشمس ومعبد باخوس وفينوس".

جوليانا تعشقُ الآثار والحضارات القديمة فقررت قضاء يومين مع (داني) في هذه المدينة الساحرة.

أوصلناهما إلى الفندقِ المجاور، وعدنا أدراجنا إلى بيروت، أصبحت المسافات بين فرنسا وبيروت سهلة جدًا بالنسبة لـ (وسام) فكان كل شهرين يفاجئني بوجوده وأصبحتُ أعتاده وأفتقده إن طال غيابه... أفتقده نعم وبشدّةٍ، يأتي محمَّلًا بالهدايا مليئًا بالشوق متلهِّفًا لتحديد يوم الزواج. كان يقضي الأسبوع في بيروت وهو يبحثُ عن

t.me/yasmeenbook
مكتبة ياسمين

شقة مناسبة يرافقه أخي (جهاد) مرةً وأخي (جاد) مرةً أخرى... إلّا أنَّ الحيرة بين شقتين واحدة في آخر شارع الحمراء والثانية في منطقة الرملة البيضاء كان السبب في التأخير. وبعد تجاذبات من هنا وهناك وقع الخيار على الأخيرة وتمَّ إنهاء المعاملات الرسمية في الدوائر العقارية، وتمّت صفقة البيع بموجب شيك...

استلم مفتاح الشقة وذهبَ إلى الجامعة ينتظرني لحين انتهاء امتحان الكولوكيوم، وما إن خرجت حتى وجدته يقف أمامي يحملُ بالونات ملونة كُتِبَ على كل واحدٍ مبروك النجاح ومبارك المفتاح. نظرتُ إليه بفرح ركضتُ نحوه وغمرته بسعادة... يا لهذا الخبر السار... أحسستُ أنني بدأتُ أتلاشى بين ذراعيه من رائحةِ عطره التي اخترقت خلايا دماغي فأنعشته.

ما يدهشني فعلًا هو كيف تتحوّل المشاعر داخلنا، كيف استطاع (وسام) أن يحتلَّ مساحة كبيرة من قلبي خلال عامٍ ونصف العام؟ وكيف أنساني (سالم) والخمسَ سنوات تلك؟... كيف تمكّن من قلبي وجعله ينبضُ من جديد؟ أحببتُ احترامه لي ومعاملته الراقية ودعمه اللامحدود، كذلك جذبتني تلك الجذور الشرقية الراسخة المطبوعة داخله، كنتُ أرى الغيرة في عينيه إن نظرَ إليَّ شخصٌ أو غازلني أحد. فعلى الرغم من أنه فرنسي الجنسية عاشَ طيلة سنواته في مجتمع منفتح لا يأبه بالعادات والتقاليد لكنه لم يتخلَّ عن ثقافته العربية. لم يعدْ (وسام) مجرّد شخص سأتزوَّجه لأرضي عمتي وأردُّ معروفها، بل أصبحَ شخصًا لا يمكن العيش من دونه.

t.me/yasmeenbook
مکتبۂ یاسمین

الفصل الخامس

t.me/yasmeenbook
مکتبۂ یاسمین

تحقيق الحلم

غرباء نحنُ البشر يجافينا النوم عند الفرحِ وعند الحزن، ويصبحُ الدماغ في قمة نشاطه يستعرضُ كل تفصيلة صغيرة وكبيرة ويسترجعها من شريط الذكريات، ويتركنا هائمين في بحرٍ من التفكير والخيال.

تقلّبتُ في فراشي يمينًا ويسارًا ولم استطع النوم وهذه المرة من شدةِ فرحي، فغدًا يومٌ مفصليٌّ في حياتي أنتظره منذ سنواتٍ وباتَ قاب قوسين. فبعَد عامين من التحضير والتجهيز والأمل، جاء وقتُ الحصاد وأول ما سأقوم به صباحًا زيارة ضريح والدي لأخبره بأنّ حلمي تحقّق وسأكمل مسيرته بكلِ فخرٍ ونجاح.

عند الثانية عشر ظهرًا اجتمع الأهل والأقارب عند مدخل شارع الجميزة وفي مقدمتهم (وسام) ينتظرون بفرحٍ إزالة الستار عن اللوحة التي تحملُ اسم (صيدلية بيروت). للحظاتٍ شعرتُ أنني أحلِّقُ في سماء بلا حدود، فسيحة بلا مدى، مترامية بلا منتهى، تمنّيتُ أن تحملني الطيور لأرفرفَ معها عاليًا، علّني أصلُ إلى روح أبي كي يرى فرحتي ويبارك إنجازي. ترقرقت الدموع في عينيَّ، اقتربت أمي وحضنتني بفرحةٍ عارمة، مع أول خطوة خطوتها إلى الداخل، صفّق الجميع وانهالت عبارات التهنئة والتبريكات وأسرع أخي (جاد)

بتوزيع الحلويات على الحضور والمارة وعلت الضحكات والمفرقعات احتفالًا وابتهاجًا.

بعد هذا النهار الطويل، اصطحبني (وسام) لتناول العشاء في مطعم يطلُّ على خليج جونية الساحر... وخلال هذا العشاء الرومانسي وعلى ضوء الشموع تمَّ تحديد موعد زفافنا في يوم الحب (عيد العشاق) في الرابع عشر من شباط (فبراير) من العام 2004 أي بعد ستة أشهر.

فندق الريفييرا

اكتملَ عددُ المدعوِّين وامتلأت قاعة فندق الريفييرا المزيّنة بالورود البيضاء، وبدأ الجميع يترقّب وصول العروسين. علت الزغاريد والتصفيق الحاد وعلى أنغام أغنية (زفّوا العروس) ظهرت (جيهان) تتأبَّط ذراع عريسها بفستانها الأبيض المرصَّع بأحجار برَّاقةٍ وعلى رأسها تاج يبهرُ الناظرين مزيّن بحباتِ الكريستال. بدت كملكة تسيرُ وسط بنات الزفّة اللواتي يتمايلن أمامها وينثرن الزهور أمام العروسين. امتدَّ العرس الملكي إلى ما بعد منتصفِ الليل فكانت ليلةَ العمرِ من ألف ليلةٍ وليلة. توجّه العروسان بعدها إلى أرز لبنان لقضاء شهر العسل، حيث الهدوء والجمال الساحر وليحفرا اسميهما على شجرة العشاق لتخليد حبهما كما يفعل الكثيرون... حيث يعتقد أنَّ جذوعها تعكسُ قصة حب آدم وحواء... وأساطير كثيرة مشوَّقة... إلا أن مجاورة هذه الأشجار تبعثُ في داخلكِ روح الوطنية والصمود والتعلّق بالأرض... يتغلغلُ في شراييك حب الوطن. أمضى العروسان أسبوعين رائعين في أحضانِ أشجار الأرز، وكأنهما في بقعةٍ من الأرضِ مفصولة عن العالم.

سنة أولى حب

في إحدى المرّات قالت لي صديقتي (هدى): إن العام الأول من الزواج يظهرُ الشخص على حقيقته، أي يتصادم الواقع مع الحلم والأفعال مع التوقعات، ويختفي فجأة ذاك الحلم الذي كان في مخيلتكِ، لكنني لم أُصدَم بـ (وسام) بل على العكس تمامًا وجدته إنسانًا يستحقُّ الحب. كما يقول الفرنسيون (L'amoure est un verbe) الحب فعل لا كلمة، وهذا القول ينطبق على (وسام) فهو نِعمَ الزوج الحنون، أحبَّني بصدقٍ وجعلني أسعدَ زوجة...

أمضينا الصيف في فرنسا ثم عدنا سويًّا إلى أرضِ الوطن، وأنا أحملُ في أحشائي ثمرةَ حبنا. مضت الأشهرُ الأولى من الحمل بغثيانٍ مستمر وخاصة في الصباح، وجاءت المرحلة الثانية فكانت أخفُّ وطأة على النفس وأدفأ على القلب. وفي وداعِ عام 2004 بدأتُ أشعرُ بحركةِ الجنين؛ صرختُ بفرحٍ أمام الجميع قائلة:" لقد أحسستُ بحركةِ الحياة في داخلي". وضع (وسام) يده على بطني يتحسَّسُ حركة ولده قائلًا: "آه يا صغيري كم أتشوَّق لرؤيتك".

ابتسمت عمتي وقالت: "أشهرٌ قليلة وتحمله بين يديكَ يا حبيبي".

عاد الجميع للاحتفال بسهرةِ رأس السنة إلا أنَّ (وسام) بقي يلازمني ولا يدعني أتحرّك من مكاني... امتدّت السهرة حتى ساعات متأخرة، أمنياتُ هنا وقبلاتٍ هناك ومفرقعات ملأت الأجواء دعيتُ ربي أن تكون سنة مليئة بالأمان والاستقرار لبلدي لبنان.

أصبحَ من الصعب عليَّ التواجد في الصيدلية طول النهار وتحمُّل ضغط العمل، كذلكَ كبر بطني بشكلٍ لم أتخيّله، بعد أن أصبحتُ في الثلثِ الأخير من الحملِ، والعمل في الصيدلية يتطلب مني الوقوف لفتراتٍ طويلة مما سبّب لي تورّمًا في الساقين، فاضطررتُ لتعيين موظفة ثانية مع (سعيد)، وهي طالبةٌ في كلية الصيدلة تُدعى (سابين) تبقى على تواصل دائمٍ معي إن كان هناك وصفة طبيّة يتعذرُّ عليها قراءتها، لأن معظم الأطباء يكتبون بالأحرف الهيروغليفية، فترسلها إلى هاتفي، لأبدأ أنا في فك لغز خريطة العالم. وهناك بعض الأطباء مَن يكتبُ الوصفة بأول حرفٍ من اسم الدواء ويتبعها سطر متعرِّج وأبدأ هنا بالتنجيم والتحليل لأتمكَّن من معرفة الاسم.

كانت (سابين) موظفة تتمتّعُ بقدرٍ عالٍ من الذكاء لهذا أوكلتُ إليها جميع المهام من طلب الأدوية والتواصل المباشر مع أصحاب المستودعات والموزّعين، فكنتُ أزور الصيدلية يوميًّا وأمكثُ ساعتين بعدها أعود إلى منزل أمي التي كانت مع عمتي تقومان بشراء جهاز الطفل.

الرابع عشر من فبراير 2005

صباح 14 شباط (فبراير) غير اعتيادي وغير كل الصباحات، استيقظتُ بحبٍّ على ركلاتِ جنيني المتلاحقة فشعرتُ بعاطفةٍ جيّاشةٍ نحوه، لمستُ بطني بحنانٍ وهمستُ له: "ما بكَ يا صغيري... اهدأ".

دخل (وسام) حاملًا فنجان قهوته:

- "صباحُ الخيرِ يا حبيبتي... ما به الصغير".
- "لا أدري إنَّ حركته اليوم قوية جدًا".

ابتسم قائلا: "يعلمُ أنه عيد زواجنا الأول ويدعوكِ لتغيير ملابسكِ والاستعداد كي ننطلق إلى الأرز للاحتفال بعيد زواجنا... وعيد العشاق".

- "حقًّا؟".
- "نعم، لقد حجزتُ في الفندق وأنهيتُ كل الترتيبات".
- "حسنًا يا حبيبي أمهلني بعض الوقت، لأذهب إلى الصيدلية وأنهي بعض الأمور العالقة".

نزلتُ من البيتِ عند الحادية عشرة صباحًا، سَلكتُ طريق مار الياس باتجاه وسط البلد، ومع زحمة السير وتدفّق حركة المشاة إلى

المحلات التي اكتست باللون الأحمر شعرتُ بالبهجة والسرور وأحسستُ أنَّ الحبَّ ينشرُ بركاته على جميع العاشقين الذين يتهافتون لشراء الورود، والقلوب الحمراء... تتوشَّح باقي المحلات على طول الشارع وعرضه بالورود والبالونات الحمراء فهو مهرجان الحب.

ما إنْ ركنتُ سيارتي وهممتُ بفتحِ باب الصيدلية، حتى دوَّى انفجار ضخم دفعني بقوةٍ إلى الداخل كأن زالزلًا هزَّ الكرةِ الأرضية. لم أسمع سوى تحطيم الزجاج وتطايره على رأسي فاجتاحني ذعرٌ وخوف على جنيني، حاولتُ حماية بطني من شيء لا أعرف ما هو حاولتُ الصراخ وطلب النجدة إلا أن صوتي خانني، وآخر ما سمعته كان صراخُ (سابين)... إنها تنزفُ... ودخلتُ في حالة اللاوعي.

تطايرت أحلامي كالزجاج المتناثر هنا وهناك، وسالت الدماء في الساحاتِ، وبعدَ ساعاتٍ وساعات فتحتُ عينيَّ فإذا بدموعِ أمي وعمتي شلالات.. ترى ماذا حدث..!!! تسلَّلت يدي بخوفٍ على مَن كنتُ أنتظره ليملأَ حياتي ضحكات، فلامست يدي بطنًا وكأنه خالٍ من الحياة...

فصرختُ "يا إلهي... أين جنيني صاحب الركلات، أين صغيري!!! بالله عليكم فلم أعد أحتملُ المفاجآت".

ضمّني (وسام) إلى صدره "اهدئي يا مهجة القلب إنّ صغيركِ ينتظركِ بشوقٍ لتمنحيه الحنان".

انفرجت أساريرُ وجهي الغضبان ولهج لساني بالشكر والامتنان...

فقلتُ: "لماذا دموع أمهاتنا تملأُ الميدان؟ وما كان ذاك الانفجار؟".

اقتربت أمي وقبَّلت وجنتيّ وقالت: "الحمد لله على سلامتك يا حبيبتي، قدَّر الله ولطف".

قلتُ: "لماذا كل هذه الدموع إذن؟".

قالت بأسى: "لقد اغتالوا لبنان يا ابنتي... اغتالوا رجلَ الاعتدال والسلام".

- "يا إلهي... ظننتُ أنه قصفٌ إسرائيلي، لا أصدِّق كيف يُغتال قائد لبناني مرموق في عقر داره وفي وضحِ النهار، أين أجهزة أمن الدولة ومخابراتها"...

عَمَّت الاحتجاجات شوارع بيروت، سخطًا واستنكارًا وتنديدًا بعملية الاغتيال التي حدثت في وضح النهار، كان صدى هتافاتهم وسخطهم يصل إلى مسامعي فتؤلمني. بكيتُ وبكيتُ حتى غلبني النوم.

استيقظتُ مذعورة قلتُ لـ (وسام): "أتوقُ شوقًا لرؤية طفلي، أرجوك افعل شيئًا إنَّ فؤادي فارغٌ... لعلَّ رؤيته تخفِّفُ ثقلَ أوجاعي".

- "حسنًا... سأطلبُ إذنًا من الطبيب في الحال".

حُملتُ إليه على كرسيَّ متحرك، ما إن رأيته حتى غمرَ الحب قلبي، نظرتُ إليه مطوَّلًا.

- "يا إلهي كم هو صغير، لكنه طويل الساقين والذراعين مثلي تمامًا".

وقفتُ أتأمّله عبر الزجاج، فشعرتُ بتدفُّق حليب الأمومة والحنان، تاركًا علاماتٍ واضحة على ملابسي، وبعيونٍ جفَّت فيها الدموع قلتُ لـ (وسام):

- "انظرْ... ما ذنبي وما ذنبُ طفلي، في كلِّ الذي حدث، ولماذا!!!... لِمَ هذا الإجرام بحقنا، لماذا يُولدُ طفلي قبلَ أوانه ويبقى أسير هذا الصندوق الزجاجي... لماذا!! لا تقلْ لي إنها مشيئة الله، وإنَّ ما حدثَ هو قضاءٌ وقدر... لا... لأنّ قدرَ الله كله خير وعدلٍ. إنَّ ما حدثَ هو عملٌ شيطانيٌّ بأيادي بشرية، إلى متى سنبقى نعاني في هذا الوطن... إلى متى".

دخلتُ في نوبةِ بكاءٍ هستيرية ما استدعى الطبيب لإعطائي حقنة لتهدئتي.

في صباحِ اليوم الثاني زارني الطبيب وبعد الاطمئنان على جرحي قال بإمكاني الخروج يوم السبت، لكن الصغير سيبقى في الحاضنة عشرين يومًا على الأقل...

- "لا... لا يمكنني الخروج دونه يا دكتور".

قال وسام: "إن وضع الطرقات حاليًّا لا يسمح لنا بالتنقّل، لهذا نفضّل البقاء قرب الصغير يا دكتور".

- "لا مانع طبعًا، لكن عليكَ مراجعة الإدارة".

كان الصغير يتعافى بسرعةٍ كبيرة، وبعد انقضاء المدة المطلوبة في الحاضنة، عدنا جميعًا إلى البيت.

مررتُ بشوارع بيروت الحزينة، "آه يا بيروت، لا يليق بكِ الحزن ولا السواد.. آهٍ يا بيروت".

توالت الاغتيالات المتلاحقة لشخصيات بارزة عام 2005 ودخل لبنان مرحلة خطرة بعد سلسلة سيارات مفخخة زُرعت في كافة المناطق اللبنانية، أثارت الرعب في نفوس المواطنين، فلزموا منازلهم خشيةَ تفجيرات لا تَرحم صغيرًا ولا كبيرًا، وأصبحَ الخروج للضرورة القصوى مع أخذ أقصى درجات الحيطة والحذر. وفي ظل هذه الظروف أسرعَ (وسام) باستخراج جواز سفر خاص بطفلي وقرّرنا السفر إلى فرنسا إلى حين استقرار الوضع الأمني.

نبضٌ جديد

تأبّطتُ ذراع (وسام) ونحنُ نسيرُ في شارع الشانزليزيه المكتظّ بالمارَّة والسيّاح العرب. دخلنا إحدى الشوارع الفرعية الصغيرة حيث المطاعم العربية موجودة بكثرة، ما إنْ انتصفنا الشارع حتى فاحت رائحة طعامٍ غريبة، شعرتُ حينها بالغثيان ودوخةٍ شلَّت حركتي فجأة، أمسكني (وسام) قائلًا: "ما بكِ حبيبتي، هل أنتِ بخير؟".

- "لا أدري ما الذي أصابني، لكنني أشعرُ بالغثيان؟".

دخلنا بعجلٍ إلى أقرب مطعمٍ وما إن خطَّت قدمي حتى التقت عيناي بعينيّ ذاك الذي خفقَ له القلب خفقته الأولى. وقفتُ لثوانٍ أتأمّله ويتأمّلني ووجهه يتصبَّبُ عرقًا... أُصبتُ بالذهول عندما رأيتُ وجه مَن تجالسه، لم أستطع السيطرة على نفسي من هول الصدمة، وبوجعٍ مميت وغصّةً مخنوقة ناديتها "غالية" التفتت بخوفٍ نحو الصوت وبخطى متثاقلة اقتربت نحوي وهي ترتعدُ:

- "جيهان... عزيزتي كيف حالك؟".

خنقتني العبرة وأنا أنظرُ إلى بطنها الممتلئ، قلتُ لها:

- "لم أتوقع رؤيتك هنا أبدًا".

بارتباكٍ شديد قالت: "أعيش هنا مع زوجي".

t.me/yasmeenbook
مكتبة ياسمين

كادَ يُغمى عليَّ... أمسكني (وسام) وأجلسني وطلبَ من النادل زجاجة ماء.

قالت: "هل أنتِ بخير؟".

أبعدتُ يدها عني وأمسكتُ يد (وسام) وطلبتُ منه العودة إلى البيت، غادرنا المطعم دون أن أنظر إليها.

عند المساء بدأت الأفكار تتسارع في رأسي، عدتُ بالذاكرة إلى أيام الجامعة وإلى الخمس سنوات التي أمضيتها مع (غالية) و(سالم)... ما الذي جمع بينهما الآن؟ ولماذا في الآونة الأخيرة لم تَعُد (غالية) تردُّ على مكالماتي ورسائلي... غدرتني دمعة دون استئذان تساقطت على خدي، وقبل أن أمسحها دخلت عمتي، تحمل صينية الطعام قلتُ: "أرجوكِ يا عمتي.. لا أريدُ، فلا شهية لديّ".

- "اسمعي يا ابنتي منذ عودتكما وأنتِ طريحة الفراش، غدًا صباحًا سنذهب لزيارة الطبيب لإجراء بعض الفحوصات، نامي الآن ولا تقلقي على (فريد الصغير) إنه نائمٌ في سريره".

استيقظتُ على قبلةٍ صباحية طبعها (وسام) على جبيني قائلًا: "هيّا يا حبيبتي، أمي تنتظركِ في الصالة للذهاب إلى الطبيب، واعذريني لعدم مرافقتكما فلديَّ اجتماع عند الساعة العاشرة".

أخذتُ حمامًا سريعًا وجلستُ أمام المرآة لأصفِّف شعري الذي ازداد طوله مؤخرًا، فتراءت أمامي صورة الأمس (سالم) و(غالية).

- "يا إلهي هل فعلًا؟ تزوّجا!!".

ثم جاء صوت (فريد) الصغير لينتشلني من سهوتي. أسرعتُ إلى

غرفته ما إن رآني حتى لمعت عيناه فرحًا، قبَّلته وداعبته بحنانٍ ثم طلبتُ من المربية أن تطعمه ريثما أعود.

عند الحادية عشرة صباحًا كنا في عيادة الطبيب وبعد إجراء التحاليل والفحص السريري ابتسم دكتور (جان) قائلًا: "لا داعي للقلق سيدتي أنتِ حامل".

نظرتُ بدهشةٍ: "سمعتِ ما قال يا عمتي... أنا حامل".

- "سمعتُ يا ابنتي... ألف مبروك يا حبيبتي".

خرجنا من عيادة الطبيب وطلبتُ من عمتي عدم إبلاغ (وسام) لحين عودته.

عند المساء توجّهتُ نحو (وسام) الذي كان جالسًا ممسكًا باللابتوب، جلستُ قربه وهمستُ في أُذنه... أنا حامل، تجمَّد (وسام) مكانه وبدأ ينظرُ إلى بطني وقسمات وجهه كادت تصرخُ:

- "هل أنتِ متأكدة يا حبيبتي؟".

أومأتُ برأسي بحماسٍ:

- "بعد ثمانية أشهر سيأتي (غسان) أو (هلا)".

حملني وبدأ يدور بي بسرعةٍ جنونية، وضحكاتنا تتعالى لتنشرَ الفرح والبهجة في قلبِ عمتي التي أخذت تلتقطُ الصور وترسلها إلى أمي.

في اليوم الثاني، تجرّأتُ وأرسلتُ رسالة إلى (سالم) أستوضح الأمر، فكان الردّ بمثابةِ رصاصة اخترقت جسدي ولم أصدِّق ما قرأت...

أجريتُ اتصالًا بصديقتي (هدى) وأفرغتُ كل ما في قلبي من وجعٍ وأسف وخيبة، ودموع... فهي الوحيدة التي ستفهمني وتتفهّم ما أشعرُ به.

بعد مرور عدةَ أسابيع استطعتُ أخيرًا أن أغادرَ الفراش بعد أن استنفذ هذا الحمل كل طاقتي، في زيارتي الثانية إلى عيادة الطبيب أخبرني بأنني حاملٌ بتوأم، لم أتفاجأ أبدًا، لأن والدي وعمتي توأم، وعوارض هذا الحمل مختلفة عن ذاك... إرهاق مستمر وغثيان لا ينقطع أيضًا. أما (وسام) ففرحته كادت تعانقُ السماء قبَّلني وغمرني قائلًا: "سأكون في خدمتكِ من اليوم لحين تضعين".

قلتُ له بابتسامةٍ: "بعد أشهرٍ قليلة سأصبحُ أمًّا لثلاثة أطفال... أتدري ماذا يعني ذلك!!".

كانت أشهرُ الحمل التسعة مريعة وقاسية جدًا، وهنٌ وتعبٌ ومعاناةٌ في النوم، كنتُ أنام شبه جالسة لا أستطيع التمدّد بسبب وزني الذي ازداد بشكلٍ كبير، كذلك كبر حجم بطني حتى أنني لم أعد أرى أمامي، ولم تعد لديَّ القدرة على حملِ (فريد) الصغير رغم كل توسلاته وبكائه، فكان يرفعه (وسام) لمعانقتي فيمسك بعنقي بإحكام ويأبى أن يتركني، فكنتُ أشعرُ بالأسى لحال صغيري الذي ينشدُ حنان أمه ويفتقده.

بعد وصول أمي بأسبوعٍ واحد وضعتُ الصغيرين وأسميتهما (هلا) و(غسان) تيمّنًا بوالدي وعمتي وكان ذلك في شهر أيار (مايو) من العام 2006.

حرب 2006

كان حقد الصهاينة على لبنان ما زال متأججًا في قلوبهم منذ عام 2000، فشنَّت إسرائيل هجومًا جويًّا على جنوب لبنان إثرَ عملية أسر جنديين من جيشها في الثاني عشر من تموز (يوليو) وطال قصفها الجوي محطات الكهرباء ومطار العاصمة بيروت وشبكة الجسور، وتدمير البنى التحتية بشكلٍ كاملٍ ونزوح عدد كبير من اللبنانيين إلى بيروت والشمال وآخرين إلى خارج البلاد.

وقع نبأ اندلاع الحرب كالصاعقة على رأسي... وغدا حليب الطفلين بصدري يخالطه سموم الحقد والكراهية... صرختُ بأعلى صوتي "كفى... كفى حروبًا، يكفي ما حلَّ بنا". أسرعت أمي وأخذت الصغير من بين يديَّ، تسمَّرتُ أمام شاشة التلفاز والدموع تتساقط من عينيَّ على وطني وشعبي المسالم. لقد سئمتُ رائحة النيران والدماء سئمتُ الهرولة بين الشوارع والبيوت، فالحروب محت بهجتنا وسرقت ضحكاتنا وقتلت شبابنا.

استمرّت الحرب حتى الرابع عشر من آب (أغسطس) بعد تدخُّل مجلس الأمن الدولي وإصداره قرارًا بوقف الحرب وإنهاء العمليات القتالية بعد أربعة وثلاثين يومًا داميًا حصدت آلاف القتلى

t.me/yasmeenbook
مكتبة ياسمين

والجرحى ودُمِّر العديد من البيوت، وتسبَّبت الحرب بخسائر اقتصادية فادحة قدَّرت الحكومة اللبنانية قيمتها 2.8 مليار دولار.

تحت وطأة الأخبار التي كانت تنقلُ القصف والدمار على شاشات التلفزة، تأزَّمت حالة أمي النفسية فأُصيبت بأزمةٍ قلبية حادّة حيثُ تمَّ نقلها إلى المشفى ومن ثم إخضاعها لعملية قسطرة...

أكره الحرب... نعم أكرهها بكل تفاصيلها... أكره رائحة الدم ورائحة البارود، أكره منظر الأشلاء والبكاء والدمار، أكره الحرب كما أكره الموت، أكرهها وأكره أسبابها... متى سيأتي اليوم الذي ننحتُ فيه السلام من أسلحة الحروب.

عرفتُ مذاق الأحاسيس الوطنية والصادقة، في حرب تموز وإن كانت مطعمة بالمرارة، فكل صاروخ سقط على الأراضي اللبنانية كان يشطر قلبي نصفين، حتى اعتقدتُ بأنني لن أتنفَّس هواء بيروت مجددًا، لكن ما إن هدأت الأوضاع حتى حزمتُ حقيبتي وسافرتُ برفقة (وسام) إلى بيروت وتركتُ أطفالي بعهدة أمي وعمتي.

تفقّدتُ بادئ الأمر منزلي وصيدليتي... مشيتُ في شوارع المدينة أتحسَّسُ جدرانها الباردة، مررتُ بضواحيها المدمرَّة وجسورها المهدّمة، بكيتُ حتى تعب البكاء مني... لكنني أثقُ بهذا الشعب الجبار صاحب الإرادة القوية والعزيمة الصلبة، هذا الشعب الذي تحمَّل أكثر من جميع شعوب الأرض وأثقُ بأنه سينهضُ من جديد كطائر الفينيق.

بعد أسبوع عدنا إلى فرنسا لاتخاذ قرارٍ بالعودة النهائية إلى الوطن.

العودة إلى الوطن

الوطن كالأم لا يمكننا التخلي عن حضنها وحنانها مهما بلغنا من العمر، فاتخذنا قرار العودة إلى الوطن حيث الذكريات الخالدة التي تنبضُ بأرواحنا، ونار الاشتياق تزداد اشتعالًا مهما حاولنا إخمادها فلا بديل عن الوطن وعن أرضه وسمائه، فكانت العودة عام 2009 حيث كان الاستثمار في البلد قد بدأ على قدمٍ وساق وبدأت حركة السيّاح تنشط بكثافة، مما دفع (وسام) إلى استثمار أحد المطاعم في وسط العاصمة.

مرَّت السنوات، كبرت عمتي وضعفَ نظرها ولم يعد لديها القدرة على السفر معنا كل صيف فاستقرّت في البيت مع أمي. تركت كل شيء على ما هو عليه؛ حديقتها التي تحبّها وزهورها الفرنسية تخلَّت مرغمة عن الأشياء الجميلة. هكذا هي الحياة تمضي بنا وتأخذُ معها من أعمارنا فتصبحُ الأيام متشابهة في أحداثها، تفرحنا أبسط الأشياء وتسعدنا تفاصيل صغيرة، كبرت أمي أيضًا وبدأت تعاني بعض الأمراض، حيثُ أجريت لها منذ سنتين عملية قلبْ مفتوح، وأصبح من الصعب عليَّ تركهما كل صيفٍ والسفر إلى فرنسا وهما في عهدتي ورعايتهما واجبٌ... ومع انطلاق الاحتجاجات الفرنسية عام 2018

على أثر زيادة أسعار الوقود عبر مجموعة أطلقت على نفسها أصحاب السترات الصفراء للتنديد بارتفاع الأسعار شهدت مدن فرنسية عدة مواجهات مع الشرطة بعد أعمالِ عنفٍ وتكسير وتخريب واشتباكاتٍ عنيفة مع قوات الأمن، فأغلقت المطاعم والفنادق أبوابها وفي ظل هذه الظروف ألغى (وسام) سفره إلى فرنسا.

ثورة 17 تشرين الأول (أكتوبر) 2019

وصلت سلسلة الاحتجاجات الفرنسية إلى بيروت، في 17 تشرين الأول (أكتوبر) اندلعت شرارة الثورة بعد فرض وزارة الاتصالات رسومًا إضافية على تطبيق الواتس آب فتفجّرت احتجاجات شعبية غاضبة في العاصمة بيروت رفضًا للزيادة، وسرعان ما توسّعت لتعمَّ معظم أنحاء البلاد في مشهد عكس وحدة الشعب خلف المطالب ضد الطبقة السياسية كما طالبَ المحتجون بإصلاحات اقتصادية واجتماعية، علاوةً على ذلك واجه اللبنانيون العديد من المشاكل في السنوات السابقة من سوء الإدارة والفساد والمحسوبيات، وكان قد سبق بدء الاحتجاجات بأيامٍ قليلة سلسلة حرائق في الغابات أدَّت إلى نزوح مئات الأشخاص وألحقت الضرر بالحياة البرية، كذلك التهمت النيران مساحات شاسعة، حيثُ وقفت الدولة عاجزة عن مكافحة الحرائق وإخمادها واضطرَّت للاستعانة بدولٍ الجوار، فكانت ضريبة الأربعة دولار هي القشَّة التي وحَّدت الشعب تحت مطالب محقّة... فأغُلِقت المدارس والجامعات أبوابها وتوقّفت دورة الحياة وبدأ العدُّ العكسي. وفي خضمِّ ما يحصلُ في لبنان اتجهت أنظار العالم إلى المقلب الآخر من الكرة الأرضية

t.me/yasmeenbook
مكتبة ياسمين

وتحديدًا في الجزء الشرقي من قارة آسيا إلى (جمهورية الصين الشعبية) حيثُ بدأت أجراس الإنذار تدقُّ، من فيروس اقتحم مدينة ووهان الصينية عُرفَ بفيروس كورونا (كوفيد 19) وبدأ يتفشَّى بسرعةٍ جنونية كسرعة النار في الهشيم، فأعلنت منظمة الصحة العالمية أنَّ تفشي فيروس كورونا (كوفيد 19) يشكِّل حالة طوارئ صحية عالمية تبعثُ على القلق الدولي فدقّت السلطات حول العالم ناقوس الخطر مع تصاعد الإصابات، فأُعلنت حالة الطوارئ على كامل الكرة الأرضية، وبدأ الفيروس بالزحف إلى دول الشرق الأوسط المنكوب سياسيًا واقتصاديًا، وشلّ الفيروس عجلة الحياة وبدأ بحصدِ الأرواح غير آبهٍ بقوانين الدول وأنظمتها، فأُغلقت المطارات وتوقفت المنظمات الفنية والثقافية والرياضية أنشطتها حول العالم ولزم الناس منازلهم، بينما الفيروس يصولُ ويجولُ في البلاد شرقًا وغربًا، فكانت حربًا بيولوجية لم يشهدها العالم من قبل.

لم يطرأ على بالي أبدًا أن يقتحم هذا الفيروس بيتنا، فبعد عودة عمتي من مراجعة طبيبها الخاص بدأت تظهرُ عليها عوارض المرض، فعزلتها في غرفةٍ بمفردها بحيثُ تكون بعيدة عن أمي إلى حين التأكد من إصابتها. وبعد أن وصلت رسالة إلى هاتفي تؤكِّد إصابتها.

تفرّغتُ لرعايتها، فكنتُ أرتدي البدلة البيضاء المخيفة وأدخلُ غرفتها فتأزّمت حالتها بعد معرفتها بإصابتها بالفيروس وتمَّ نقلها إلى المشفى الحكومي حيثُ تمَّ وضعها على جهاز التنفس الصناعي إلَّا أن حالتها ساءت خلال أسبوع بشكلٍ كبير إلى أن فارقت الحياة.

t.me/yasmeenbook
مكتبة ياسمين

كان خبرُ وفاتها صدمة لم أتهيّأ لها يومًا، دُفنت عمتي ولم يتمكّن ابنها (داني) من وداعها بسبب هذا الفيروس اللعين، فتركت فراغًا كبيرًا، أوجعني موتها وأدمى فؤادي رحيلها.

مع انتشار الجائحة في لبنان غيَّرت الثورة مسارها وخططها خاصة مع إعلان حالة الطوارئ فأجبرت الناس على العودة إلى بيوتهم مرغمين. فبعد أن فشلت آلة القمع بتفريق المتظاهرين، نجحت به كورونا. وفي آذار (مارس) ومع تسجيل مائة إصابة أعلنت السلطات اللبنانية التعبئة العامة حيثُ تمَّ إقفال المؤسسات العامة وأُغلقت الحدود ومُنعت التجمعات، ومع ازدياد الإصابات زاد التوتر الاجتماعي، ورافق هذا الموضوع انخفاض سعر الليرة مقابل الدولار، فارتفعت أسعار المواد الغذائية بشكلٍ كبير مما دفع الناس للعودة إلى الشارع بزخم أكبر وأعنف، فما كان مني إلا الانضمام إلى جموع الناس الغاضبة للمطالبة بوقف الانهيار، فأقفلَ المحتجون جميع الطرق الرئيسية المؤدية إلى وسط العاصمة وأشعلوا الإطارات ورفعوا اليافطات المنددّة والمستنكرة، فاستنفرت الدولة بكامل أجهزتها، حيثُ وقعت عدة مواجهات بين المتظاهرين وعناصر مكافحة الشعب، وأُرسلت تعزيزات أخرى من الجيش وقوى الأمن وكان من بينهم أخي (جاد) الذي نظرتُ إليه بغضبٍ، اقترب مني وأمرني بالانصراف فورًا فرفعتُ في وجهه العلم اللبناني.

صاح قائلًا: "إنني أقوم بواجبي".

قلتُ بحدّةٍ: "وأنا أيضًا أقومُ بواجبي تجاه أبناء وطني".

أمسكني من يدي بقوةٍ قائلًا: "أنني آمركِ بالذهاب إلى بيتكِ وكفى عنادًا".

قلتُ له: "أوامركَ على عناصرك فقط سيدي".

تركته والتحقتُ بالمسيرة المتوجهة نحو المصرف المركزي وأنا ألوِّح له بالعلم اللبناني.

بعد ساعات نجحَ عناصر مكافحة الشغب بتفريق المتظاهرين باستخدامهم الغاز المسيِّل للدموع.

عدتُ إلى البيت وكأنني عائدة من حربٍ ضروس ما إن رآني (وسام) حتى استشاط غضبًا.

قال: "اسمعي يا (جيهان) إن النزول إلى الشارع ليس بالأمر السهل، فللثورة والانتفاضة ثمن، عائلتك بحاجة إليكِ".

نظرتُ في عينيه وقلتُ: "ووطني أيضًا بحاجة إليّ وإليكَ".

لم أتوانَ عن تكملة ما بدأته، ولم آبه لكلام (وسام) فلا أحد يستطيع أن يردعني عن واجبي تجاه الوطن طالما هناك نبضٌ في شراييني.

8 آب (أغسطس) 2020

كَثرت الخلافات بيني وبين (وسام)، وكل حوار بيننا يتحوّلُ إلى جدال عقيم، فأخبرني ذاتُ صباح أنه قرَّر العودة إلى فرنسا في نهاية الأسبوع وعليَّ ترتيب أموري.

قلتُ بنبرةٍ: "لا، لن أعود إلى فرنسا، لن أتركَ هذه الأرض ولا يمكنني ترك أمي".

- "حسنًا، كما تشائين، لكن هذا قراري ولن أتراجعُ عنه".

خرج من الغرفة وأغلق الباب وراءه بعنفٍ، وإذ بأمي تدخلُ غرفتي وهي تجرُّ قدميها جرًّا.

قالت: "بالله عليكِ يا ابنتي، كفى عنادًا رافقي زوجك وأولادك أستحلفكِ بالله".

- "أمي، ما هذا الذي تقولينه... كيف سأتركُكِ وأنتِ على هذه الحال".

- "لا عليكِ يا ابنتي، سأمكثُ عند أخويك وسأكون بخير لا تقلقي".

جلستُ عند قدميها المثقلتين والدموع تملأُ عينيّ.

- "مستحيل يا أمي لا أستطيع".

قالت: "إن قرار زوجك حاسم ونهائي، سافري وعندما تهدأ الأمور تعودي أنت وعائلتك من جديد، اسمعي كلامه يا حبيبتي".

- "والوطن يا أمي... الوطن لمن أتركه؟!!".

قالت بغصّةٍ: "اتركيه في عهدةِ الله، فهو خير حافظ".

في ظلِّ أزمة انتشار فيروس كورونا، أغلقت السلطات ساحاتِ الاعتصام ببناء جدران إسمنتية عالية تحول دون وصول المتظاهرين إلى الساحة العامة في وسط البلد وتمّت إزالة خيمِ المحتجّين، حيثُ منعَت التجمعات بعد أن ارتفعت أعداد المصابين بشكلٍ كبير، فأعلنت وزارة الصحة عن امتلاء أسرَّة المستشفيات الحكومية، لهذا أصبحت التجمعات خجولة ومقتصرة على احتجاجات ووقفات استنكار في أماكن بعيدة عن وسط البلد وكان هذا هو القرار الصائب الوحيد الذي اتخذته الدولة.

كثيرٌ من الظواهر التي نعيشها ولا نفكّر فيها بشكلٍ عميق أو ربما لا ننتبه لها في الأساس، وفي صباح الرابع من آب (أغسطس) لم يكن هناك تراتيل الطيور ككل صباح، ولا صوت فيروز ولا رائحة قهوة، أسرعتُ نحو غرفة أمي فوجدتها تغطُ في نومٍ عميق، أيقظتها بقبلةٍ على رأسها.

- "صباحُ الخير يا أمي... هيا لنحتسي القهوة سويًّا، كي يشرقُ نهاري".

t.me/yasmeenbook
مكتبة ياسمين

بيدها المرتعشة ارتشفت القليل من قهوة الصباح ثم نظرت إليَّ قائلة: "لقد اتصل (جاد) وسيأتي عند السادسة لاصطحابي هل حقيبتي وأدويتي جاهزة يا ابنتي".

- "نعم يا أمي... كلُّ شيءٍ جاهز من الأمس حتى حقائبنا تنتظر على الباب... قبّلتُ يديها، سأفتقدكِ كثيرًا يا أمي".

جاء (وسام) عند الظهيرة محمَّلًا بعلبِ الحلويات والمكسرات وأكياس القهوة وقال بحماسٍ: "هذه الأغراض لـ (داني) سأرتّبها في حقيبتي، وأعود حالًا".

ارتدت أمي ملابسها ووضعتُ لها من عطري المفضل وجلست مع أحفادها تسرقُ منهم بعضَ القبلات لحين وصول أخي (جاد).

عند الساعة السادسة و8 دقائق، اهتزَّت العاصمة بيروت... بل رجَّت الكرة الأرضية بأكملها بانفجارٍ ضخم أيقظَ الأموات وأماتَ الأحياء. انفجرت بيروت وانفجر معها قلبُ أمي... ولم يأتِ أخي (جاد).

انفجرت حنجرتي صراخًا... أمي، أولادي، بيروت آه يا بيروت وآهٍ يا أمي. ركضتُ وسط ركام الزجاج أنتشلُ التي حملتني في بطنها أقبِّلُ يديها وأُبعد الزجاج عن وجهها وأناديها بأعلى صوتي...

أرجوكِ يا أمي لا تتركيني، لا تغمضي عينيك وترحلي... يا وطني، يا مدينتي أنتِ يا أمي يا ترنيمة السماء ويا طهر العذراء...!!! يا لحظِّ السماء يا أمي...".

استفقتُ من هولِ الزلزال على مأساة لا دواء يشفيها ولا زمنٍ يداويها... رحيلُ أمي وأخي (جاد) الذي لم ندفن منه سوى أشلاء، وعلى ركام الصيدلية واغتيال الأحلام...

النهاية

كلمة الكاتبة

هكذا تمرُّ سنواتنا... وهكذا نعيشُ أيامنا ولياليا وكأننا بلا تاريخ وحضارة.

نمرُّ بمواسمٍ كثيرةٍ من الحزنِ والألم، ورُغمَ كل هذه الظروف:

- نتقدَّم رُغم أنفِ الحروب ولن نتخلّى عن أمجاد الماضي بقيمه وعزَّته.
- نتعلَّم مع أننا ندرسُ على ضوءِ الشموع الذي يمثِّل الصبر والصمود.
- نبدعُ رغم لهيبِ الطائفية.
- نحلمُ، ونحقِّق وننجز بمجهودنا الفردي كي نصلَ إلى ما نطمحُ إليه، وبعاصفة واحدة يُهدم ما بنيناه بدم باردٍ، ثم ننهضُ من جديد ننفضُ الغبارُ عن أجسادنا ونعيدُ بناء ما خلَّفته العاصفة الهوجاء، نبدأُ بعزمٍ وإرادة أقوى، لأننا شعبٌ لا يعرف اليأس ولا الاستسلام، نؤمن بكفاءاتنا ونفتخر بثقافتنا وبفكرنا الجبَّار.

ومع هذا أقول:

"كيف لو كنا ننعمُ بالأمن والسلام، كيف لو وفرَّت لنا الدولة الدعم والأمان؟

كيف لو طالبت بعودة المغتربين، ذوي الأدمغة والكفاءاتِ العالية؟...

أتتخيّلون أين نكون!!!

كنَّا اليوم ننافسُ أقوى الدول وأعظمها... فلبنان لا ينقصه سوى السلام ليكون في مصافِ الدول الأولى".

طابَ يَومكَ يا وطني

هند مطر

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook